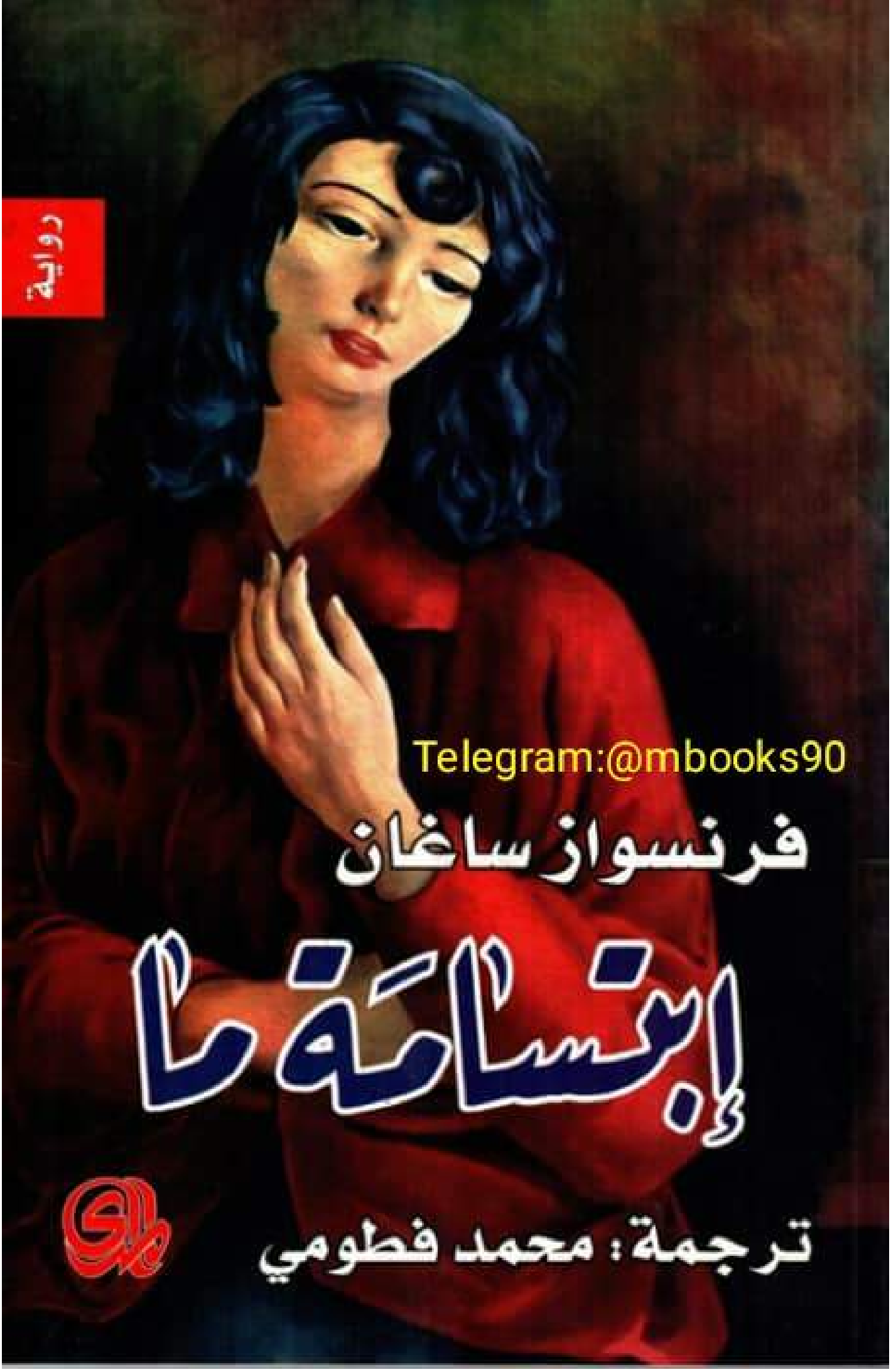
رواية
Telegram:@mbooks90
فرنسواز ساغان
إبتسامة ما
ترجمة : محمد فطومي

روايـة

Author: **Françoise Sagan**	اسم المؤلف: فرنسواز ساغان
Title: **Un certain sourire**	عنوان الكتاب: ابتسامة ما
Translated by: **Mohammed Fattoumi**	ترجمة: محمد فطومي
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2019**	الطبعة الأولى: 2019

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Éditions Julliard, Paris 1956

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com - email: info@almada-group.com
+964 (0) 770 2799 999
+964 (0) 770 8080 800
+964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+961 706 15017
+961 175 2616
+961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+963 11 232 2276
+963 11 232 2275
+963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.
This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.
هذا الكتاب مسؤولية الكاتب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

٢٧٠٧٢٣٩٠٦٥

«الحبُّ هو ما يحدثُ بين اثنين يحبُّ كلاهما الآخر».

• روجي ڤايان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزء الأوّل

الفصل الأوّل

قضينا فترة ما بعد الظهيرة في مقهى بشارع سان جاك. كانت ظهيرة ربيعيّة مثل غيرها. أحسستُ بالضّجر قليلاً، باعتدال. كنتُ أتنقّل بين آلة التّسجيل وبين النّافذة فيما كان «برتران» يناقش مقالات سبير(1)Spire. أذكر أنّي لوهلة لمّا استندتُ على الآلة رأيتُ القرص يرتفع ببطء ليستقرّ في زاوية تحت الرّأس القارئة، برقّة تقريباً كأنّها خدّ، ولا أدري لماذا غمرني إحساس عنيف بالسّعادة؛ حدس جسدي طافح بأنّي سأموت يوماً، وأنّه حينها لن تكون هناك يدي فوق هذه الحافّة الكروميّة، ولا الشّمس في عينيّ.

استدرتُ إلى برتران. نظر إليّ ولمّا لاحظ ابتسامتي نهض. لا يقبل أن أكون سعيدة من دونه. فرحي لا ينبغي أن يكون سوى مجرّد لحظات مُهمّة في حياتنا المشتركة. هذا أعرفه بصورة مُشوّشة لكن يومها لم أكن قادرة على تحمّله أو تجاهله. صدح من البيانو لحن «وحيد وعذب Lone and sweet» وناوبت الكلارينت التي حفظتُ كلّ نفس فيها.

التقيتُ برتران أوّل مرّة خلال امتحانات السّنة الفارطة. قضينا أسبوعاً قلقاً جنباً إلى جنب
Telegram:@mbooks90
قبل أن ألتحق بوالديّ في الصّيف. قبّلني في الأمسية الأخيرة ثمّ كتب لي. بارتباك في البداية، بعد ذلك تغيّرت النّبرة. كنتُ أتابع تدرّجه بنوع من الخفى، حتّى أنّه لمّا كتب لي: «يبدو لي هذا الاعتراف سخيفاً، لكنّي أعتقد أنّي أحبّكِ». كدتُ أجيبه باللّهجة نفسها ودون كذب: «إنّه اعتراف سخيف، لكنّي أحبّك أيضاً». حضرتني الإجابة بشكل طبيعي، بل الأحرى صوتيّاً.

إقامة والديّ في الـ«يون»(2)Yonne لا تمنح سوى القليل من التّسلية. أنزل إلى ضفّة النّهر، أراقب شعاب الطّحالب المُموّجة الصّفراء على السّطح. ثمّ أصنع ارتدادات بحجارة صغيرة ملساء، سوداء ورشيقة في الماء مثل خطاطيف. طيلة ذلك الصّيف كنتُ أردّد «برتران» بيني وبين نفسي ولاحقاً أيضاً. على نحو ما بدا لي كافياً خوض مغامرة حبّ قائمة الرّسائل.

في الوقت الحاضر برتران خلفي. ناولني كأسي؛ عندما التفتُّ كنتُ في مواجهته. ما زال متضايقاً بسبب غيابي عن نقاشهم. أحبّ القراءة، لكن الحديث عن الأدب يُضجرني.

لن أعتاد على ذلك.

«تُظهرين دائماً الشّحنة نفسها، قال، لاحظي أنّي أحبّها كثيراً».

نطق جملته الأخيرة بصوت محايد وتذكّرتُ بأننا نسمع القرص للمرّة الأولى معاً. كنتُ دائماً أجد لديه دفعاً عاطفياً، معالم في علاقتنا، لم أحتفظ منها بذكرى.

«إنّه لا يُمثّل لي شيئاً، فكّرتُ فجأة، أنا لا أكترث لشيء، أنا لا شيء، لا شيء، حقيقة لا شيء؛ والنشوة نفسها العبثيّة سكنت حنجرتي.

«يجب أن أذهب للقاء خالي، المسافر، قال برتران. تأتين؟»

تقدّمني وسرتُ متعبة. لم أكن أعرف الخال المسافر، ولم تكن لي رغبة في معرفته. لكن كانت هناك أشياء في داخلي توجّهني لأتعقّب عنقاً حليقاً جيّداً لشاب، تجعلني أنساق دائماً دون مقاومة وراء تلك الأفكار المتجعّدة الزّلقة كسمك. وعاطفة حارّة ما. نزلنا إلى الشارع أنا وبرتران، خطواتنا متناغمة كأجسادنا في اللّيل؛ كنّا نحافاً وسازين كصور. على طول الشارع وموقف الباصات التي سثقلّنا للقاء الخال المسافر كنتُ مغرمة ببرتران. الاهتزازات تجعلني أقذفُ نحوه، يضحك ويحيطني بذراع حارسة. بقيتُ متّكئة على جاكيته، جنباً لجنب مع انحناء كتفه، كتف الرّجال هذا الملائم تماماً لرأسي. أتنفّس عطره، أعرفه جيّداً، إنّه يهيّج مشاعري. برتران حبيبي الأوّل. معه تعرّفتُ على عطر جسمي. على أجسام الآخرين نكتشف دائماً أجسامنا، طولها، رائحتها، بحذر في البداية، ثمّ بعرفان.

كان برتران يحدّثني عن الخال المسافر، وبدا أنّه لا يحبّه كثيراً. حدّثني عن كوميديا أسفاره؛ ذاك أنّ برتران يُمضي وقته في البحث عن كوميديا الآخرين دون وعي منه بذلك. الأمر الذي يبدو لي هزلياً. ويجعله غاضباً.

كان الخال المسافر في انتظار برتران في شرفة أحد المقاهي. لمّا لاح لي قلتُ لبرتران إنّ هيأته ليست سيئة مُطلقاً. كنّا قد اقتربنا منه فنهض.

«لوك، قال برتران، جئتُ مرفوقاً بصديقة، دومينيك، هذا خالي لوك، المسافر».

تفاجأت بغبطة حقيقيّة. قلتُ في نفسي: «معقول جدّاً أن يكون هذا هو الخال المسافر».

عينان رماديّتان وسحنة مُنهكة، تكاد تكون حزينة. على نحو ما كان وسيماً.

«كيف جرت الأمور مع رحلتك الأخيرة؟ قال برتران.

- سيّئة للغاية. كان عليّ القيام بأشياء غير قابلة للهضم في بوستون. كان هناك رجالُ قانون مُغبرّون في كلّ زاوية. مُملّون جدّاً. وأنت؟

- «امتحاناتنا بعد شهرين»، قال برتران.

ركّز على مسألة «نحن». إنّه الجانب الذي يُميّز السربون(3)La Sorbonne. نتحدّث عن الامتحانات كأنّنا نتحدّث عن رضيع.

استدار الخال ناحيتي:

«ستجرين الامتحانات أيضاً؟

- نعم، قلت بشكل عام. نشاطي الضيّق يخجلني دائماً.

- «لم يعد لديّ سجائر»، قال برتران.

نهض وتبعته بنظراتي. كان يمشي بمرونة. أفكّر أحياناً أنّ هذا الكمّ من العضلات، والانفعالات تلك، والبشرة الذاكنة، مُجتمعة، هي لي، وهذا يبدو لي هديّة مُدهشة.

«ماذا تفعلون عدا الامتحانات؟ قال الخال.

- «لا شيء، قلت، أعني لا شيء يُذكر». رفعتُ يدي علامة الإحباط. أمسك بها؛ نظرتُ إليه متعجّبة لحظة، فكّرتُ بسرعة: «يعجبني. هو عجوز قليلاً، لكنّه يعجبني». إلّا أنّه وضع يدي على الطاولة مُبتسماً:

«أصابعك مليئة بالحبر. هذه علامة جيّدة. ستنجحين في اختباراتك وستصبحين محامية لامعة، وإن كنتِ لا تبدين ثرثارة».

انخرطتُ معه في الضّحك. كنتُ في حاجة إلى صديق.

عاد برتران؛ حدّثه لوك. لم أكن أسمع ما يدور بينهما. صوت لوك متأنٍ، ويداه كبيرتان. قلتُ لنفسي: «إنّه بالضّبط مغوي البنات الشابّات من نوعي»، كنتُ قد أخذتُ احتياطي. ليس كثيراً حتّى لا أُصاب بضربة خيبة لو دعانا في اليوم الموالي للغداء في بيته، لكن مع زوجته.

الفصل الثاني

قبل العشاء عند لوك، قضيت يومين مُمِلّين للغاية. في النهاية ماذا لديّ كي أفعله؟ المذاكرة لامتحان لن يفضي بي إلى الشيء الكثير، التسكّع تحت الشمس، أن أكون محبوبة دون أن يكون ذلك مُتبادلاً من جهتي نحو برتران؟ مع أنّي أحبّه. الثقة، العطف، التقدير لا تبدو لي أشياء بلا وزن وقليلاً ما أفكّر في العشق. غياب العاطفة الحقيقيّة يبدو لي السّبيل الأكثر طبيعيّة للعيش. العيش في تجلّياته القصوى، هو أن يرتّب المرء نفسه ليكون سعيداً أكثر ما يمكن. وهذا ليس سهلاً.

أسكن في نوع من الإقامات الدّاخليّة لعائلة مُؤلّفة فقط من طالبات. الإدارة مُتفهّمة وفي استطاعتي العودة عند الواحدة أو الثّانية صباحاً. سقف غرفتي واطئ وهي كبيرة وعارية تماماً، لأنّ مشاريع تزويقها سقطت كلّها في النّسيان. لستُ مُتطلّبة كثيراً فيما يخصّ الدّيكور إلّا فيما يزعجني. تضوع في الغرفة رائحة المُقاطعات الفرنسيّة التي أحبّها بشكل خاصّ. تفتح نافذتي على ساحة سورها قصير، تقبع فوقه سماء متآكلة دائماً، أسيئت معاملتها من جانب باريس، تهرب أحياناً في شكل آفاق تعلو شارعاً أو شرفة، مُؤثّرةً وعذبة.

أستيقظ، ألتحق بالدّروس، أجد برتران، نتناول الغداء، هناك مكتبة السّربون، السّينما، العمل، شرفات المقاهي، الأصدقاء. مساءً نذهب للرّقص، أو نعود إلى شقّة برتران، نتمدّد على سريره، نمارس الحبّ، ثمّ نظلّ نتحدّث طويلاً في العتمة. كنتُ بخير وكان دائماً ثقة في أعماقي ما يُشبه الدّابّة السّاخنة الحيّة، طعم الضّجر، الوحدة والحماس في فترات أخرى. أحدّث نفسي أحياناً بأنّي مُصابة بالتهاب الكبد.

Telegram:@mbooks90

يوم الجمعة ذاك، قبل الالتحاق بلوك في منزله للغداء، مررتُ أوّلاً بـ«كاترين» ومكثتُ عندها نصف ساعة. كانت كاترين حيويّة، متسلّطة وبصفة مسترسلة مُغرمة. أتلقّى صداقتها بَدَل أن أختارها. لكنّها تعاملني كما لو كنتُ هشّة ومُعدمة الحيلة وهذا يمتعني. بل غالباً ما تبدو لي مُذهلة. لا مبالاتي تكتسي طابعاً شعريّاً في نظرها كما كانت في نظر برتران مدّة طويلة قبل أن تسيطر عليه رغبة جامحة في التملّك.

يومها كانت مُغرمة بابن عمّ لها. روت لي حكايتها الرومانسيّة الطّويلة. قلتُ لها إنّ عليّ الذّهاب إلى أقارب برتران وانتبهتُ لوهلة أنّي نسيتُ لوك قليلاً. أحسستُ بالنّدم على ذلك. لِمَ لا يكون لي أنا أيضاً واحدة من قصص الحبّ السّخيفة لأرويها لكاترين؟ لم تستغرب ذلك يوماً. كنّا قد تجمّدنا في أدوارنا. هي تحكي وأنا أنصت، هي تنصح وأنا لا أعود أسمع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلك الزيارة سببت لي الكآبة. وجدتُ نفسي في بيت لوك دون حماس كبير. بل برهبة: لابدّ من أن أتكلّم، أن أكون ظريفة، أن أخلق نفسي ثانية أمام أعينهم. كنتُ أفضّل لو أنّي تناولتُ طعامي وحدي، أدير إناء خردلي بين يديّ، أن أكون شاردة، شاردة، شاردة تماماً...

عندما وصلتُ إلى لوك كان برتران هناك. قدّمني لزوجة خاله. كان لديها شيء ما مُتفتّح، فتألّق، طيّب للغاية، شيء ما يجعل ملامحها جميلة، طويلة القامة، ثقيلة قليلاً، شقراء. جميلة بلا غدوانيّة.

كنتُ أعتقد أنّه نوع النساء اللّواتي يحبذهنّ الرّجال ويسعون إلى الاحتفاظ بهنّ، امرأة تجعلهم سعداء، امرأة رقيقة، هل كنتُ رقيقة؟ هذا السّؤال يجب أن يُطرح على برتران. أنا دون شك أمسكه من يده، لا أصرخ، أداعب شعره. لكنّي أكره الصّراخ ويداي تحبّان شعره السّاخن الكثيف، كفرو دابّة.

فرنسواز أبدت لُطفاً كبيراً. جالت بي في أرجاء المنزل الفخم، سكبت لي كي أشرب. دعتني للجلوس على كنبة بشكل مُريح، باهتمام فعلت. خفّ شعوري بالانزعاج الذي سببته لي تلّورتي وكنزتي المهترئة والفحزفة قليلاً. كنّا نستمع إلى لوك يعمل. فكّرتُ في أنّه عليّ إيلاء عمل لوك القليل من الاهتمام، ما لم أفكّر فيه من قبل أبداً. كنتُ دائماً أتمنّى أن أسأل النّاس: «هل تُحبّون بعضكم؟ ماذا تقرؤون؟» لكنّي أبداً لم أكترث لما يمتهنونه... أحياناً يُعَدُّ أمراً ذا قيمة كبيرة في نظرهم.

«تبدين قلقة، لاحظت فرنسواز ضاحكة. تريدين المزيد من الويسكي؟

- من فضلك.

- دومينيك تلاحقها سمعة السكّيرة، قال برتران، تدرين لماذا؟

وقف بقفزة بوثبة واحدة وجاء بقربي راسماً على محيّاه الجدّية:

«شفتها العلويّة صغيرة نسبيّاً، حين تشرب مُغمضة العينين هذا يعطيها سحنة حماس لا علاقة لها بالسكوتش».

وهو يتحدّث أخذ شفتي العلويّة بين إبهامه وسبّابته. أظهرها لفرنسواز كجرو. ضحكتُ وأفلتني. دخل لوك. حين لمحته قلتُ لنفسي مرّة أخرى، لكن بنوع من الألم، إنّه وسيم جدّاً. إنّ ذلك يُعذّبني ككلّ الأشياء التي لا يمكنني الحصول عليها.

نادراً ما تكون لديّ الرّغبة في تحقيق أمر ما، لكن هذه المرّة فكّرتُ في أنّي أشتهي لمس هذا

الوجه بيدَيّ، الإمساك به، ضمّه بأصابعي، بعنف، أن أضغط بهذا الفم الممتلئ على وجهي، هذا الفم الطويل نوعاً ما. بينما لوك لم يكن وسيماً. لاحقاً سيكون على أحدهم أن يردّد ذلك على مسامعي. لكن كان ثمّة في هذه القسمات التي أراها للمرّة الثانية ما يجعلها مألوفة ألف مرّة من وجه برتران. ألف مرّة مألوفة، ألف مرّة مُشتهاة من برتران الذي يعجبني رغم كلّ شيء.

دخل لوك، سلّم وجلس. يتمتّع بقدرة عجيبة على عدم الحركة. أعني أنّ هناك شيئاً مُتشنّجاً، محترزاً في حركاته البطيئة، الاستسلام المُقلق الذي في جسمه. كان ينظر إلى فرنسواز بحنان. وكنتُ أنظر إلي. لم أعد أذكر ماذا كنّا نقول، كان برتران وفرنسواز هما الأكثر تحدّثاً. استعادة البداية فظيعة بالنسبة إليّ. آنذاك كان يكفيني القليل من الحذر والمسافة كي أنجو منه. طبعاً لا مجال للجوء إلى ذلك منذ المرّة الأولى حيث كنتُ سعيدة به. فكرة وصف المناسبات الأولى وحدها، كسرُ حاجز الكلمات القادرة على القيام بذلك، تملؤني سعادة مريرة ومتلهّفة.

كان إذاً غداءً مع لوك وفرنسواز، ثمّ في الشارع مشيتُ على خطوة لوك التي كانت حثيثة، ونسيتُ خطوات برتران. أخذني من مرفقي ليعبر بي الطريق: أزعجني ذلك. أذكر أنّي لم أعرف ماذا أفعل بساعدي ولا بيدي المتدلّية في نهايته، كنتُ آسفة، كما لو أنّه بدءاً من يد لوك قد ماتت يدي. لا أذكر كيف كنتُ أتصرّف مع برتران. لاحقاً سيصطحباننا، لوك وفرنسواز، إلى محلّ لبيع الملابس وسيشتريان لي معطفاً أحمر، دون أن يكون لديّ فكرة وسط ذهولي هل أرفض أم أشكرهما. على أيّ حال كان هناك ما يجعل الوقائع تتسارع منذ مجيء لوك. فبعده سقط الوقت كضربة. ومن جديد صار هناك دقائق وساعات وسجائر. أمّا برتران فكان غاضباً لأنّي قبلتُ المعطف. عندما افترقنا عنهما قام بحركة عنيفة:

«هذا لا يُصدّق. أيّ كان يهديك أيّ شيء فلا تمانعين! حتّى أنّك لا تتعجّبين!

- لم يكن أيّ أحد، إنّه خالك، قلتُ بنيّة سيّئة. ثمّ إنّه ليس في وسعي دفع ثمن معطف كهذا، إنّه باهظ بشكل مُروّع.

- تستطيعين العيش من دونه، أعتقد.

منذ ساعتين اعتدتُ على المعطف الذي لاءمني بشكل جيّد والجملة الأخيرة صدمتني قليلاً. كان هناك نوع من المنطق الذي خان برتران، قلتُ له ذلك فتخاصمنا. لتنهي الأمر أخذني إلى شقّته، دون عشاء، كما لو أنّه يعاقبني. تلك العقوبة كانت بالنسبة إليه، أعرفه جيّداً، الحدث الأكثر إثارة، الأكثر استحقاقاً في يومه بأسره. مُمَدّداً إلى جانبي، قبّلني بنوع من الاحترام، بارتعاش أثّر فيّ وأفزعني. كنتُ أفضّل البهجة المتهوّرة لبداياتنا، الجانب الشبابيّ، الحيوانيّ، لعناقنا. إنّما

حين تمدّد فوقي وأخذني بنفاد صبر، نسيتُ ما لم يكنه يوماً، ونسيتُ أيضاً همساتنا المزدوجة. إنه برتران من جديد، وإنها اللذّة والقلق مرّة أخرى. اليوم، خاصّة اليوم، تلك السّعادة، نسيان الجسم ذاك الذي يبدو لي هديّة لا تُصدّق، ساخرة حين أفكّر في تحليلي للأمور، في مشاعري، فيما لا أقدر عليه، مهما فعلت، لا يمكنني استحضار الضّروريّ.

الفصل الثالث

اجتمعنا حول العشاء في مناسبات عديدة أخرى نحن الأربعة أو صحبة أصدقاء لوك. ثمّ كان على فرنسواز أن تُمضِي عشرة أيّام عند بعض الأصدقاء. كنتُ قد أحببتُها؛ كانت تهتمّ بالناس بشكل كبير، كانت طيّبة للغاية، طيبة تمنح الأمان، خشية أن تقع في سوء فهم أحد، وهذه الخصلة تعجبني أكثر من غيرها. كانت مثل الأرض، مُطمئِنة كالأرض، أحياناً طفوليّة: هي ولوك كانا يضحكان سويّاً كثيراً.

رافقناها إلى محطّة «ليون». كنتُ قد تخلّصتُ من خجلي وأتصرّف تقريباً بأريحيّة؛ عموماً مبتهجة، لأنّ اختفاء إحساسي الدائم بالملل، ذاك الذي لم أجرؤ على أن أطلق عليه اسماً، غيّرني بشكل رائع. أصبحتُ نشيطة وأحياناً صاحبة دعابة. اعتقدتُ أنّ وضعا كهذا يُمكن أن يستمرّ إلى الأبد. اعتدتُ على وجه لوك، وبدا لي أنّ الانفعالات المفاجئة التي يمنحني إيّاها تملؤني جمالاً ومودّة. عند البوّابة ابتسمت فرنسواز.

«أعهد به إليكما»، قالت لنا.

غادر القطار. أثناء العودة توقّف برتران ليشتري لا أدري أيّ صحيفة سياسيّة أدبيّة، ستصلح له ذريعة ليُظهر امتعاضه. فجأة التفت لوك ناحيتي وقال بسرعة:

«نتناول العشاء سويّاً غداً؟»

كدتُ أقول له: «حسناً، سأخبر برتران»، لكنّه قاطعني: «سأهاتفكِ» واستدار إلى برتران الذي التحق بنا للتوّ:

«أيّ صحيفة اقتنيت؟

- لم أجدها، قال برتران، لدينا دروس، دومينيك؛ أعتقد أنّ علينا الإسراع.

أخذني من ذراعي. أمسك بي. كان هو ولوك يتبادلان نظرات التوجّس. بقيتُ مُضطربة. مع رحيل فرنسواز كلّ شيء أصبح مُنغّصاً ومُقرفاً. احتفظتُ بذكرى سيّئة عن إشارات لوك الأولى لأنّي، قلتُها قبل الآن، أنا مصنوعة من غمامات جيّدة. انتابني فجأة شعور بالحاجة إلى فرنسواز كدرع حماية. أعرف أنّ الرّباعي الذي كوّناه لم يستقرّ سوى على أرض مُخادعة وهذا سبّب لي الذّعر، إذاً، وككلّ الناس الكذّابين كنتُ حسّاسة للجوّ العامّ، ونزيهة وأنا أؤدّي فيه دوري.

- سأعيدكما إلى البيت، قال لوك دون اكتراث.

كانت لديه سيارة مكشوفة، سريعة وكان يقودها جيداً. في الطريق لم نقل شيئاً عدا: «إلى لقاء قريب»، ونحن نفترق.

«في النهاية، ذهابُه يريحني، قال برتران. ليس مناسباً أن نرى الوجوه نفسها دائماً».

هذه الجملة ألغت لوك من برامجنا المشتركة، لكنّي لم ألفت انتباهه إلى حدوث ذلك. فقد صرتُ حذرة.

«ثمّ، تابع برتران، هُما مُسنّين، أليس كذلك؟»

لم أجب بشيء وحضرنا مبادئ «بريم» Brême(4) حول الأخلاق حسب أبيكيورس(5)Epicure. أصغيتُ بعض الوقت دون حركة...

كانت لدى لوك الرّغبة في أن نتناول العشاء بمفردنا. ربّما كانت هذه هي السّعادة. مسحتُ أصابعي على المقعد وراودتني ابتسامة لا تُقاوَمُ تشكّلت في فمي. أشحتُ برأسي حتّى لا يراها برتران. دام ذلك دقيقة. ثمّ قلتُ لنفسي: «ها أنتِ تشعرين بالإطراء، هذا طبيعيّ». قطعُ الجُسور، سدّ المعابر، عدم الانسياق، دائماً كانت لَديّ غرائز الشّباب الجيدة.

في اليوم الموالي قرّرتُ أن يكون عشائي مع لوك مرحاً وبلا عواقب. أتخيّله متّقداً ومتحمّساً وأراه وهو يقدّم لي اعترافاً على الفور. وصل مُتأخّراً قليلاً، شارداً، ولم يكن لديّ سوى رغبة واحدة: أن يُظهر ارتباكاً بسبب لقائنا المنفرد المرتجل. لم يفعل شيئاً، كان يتحدّث بهدوء عن أشياء وعن أخرى بأريحيّة انتهى بي الأمر لأشاطره إيّاها. إنّه دون شك الشّخص الأوّل الذي منحني تلك الرّفاهية وخلّصني من السّأم. ثمّ اقترح أن نرقص ونحن نتناول العشاء واصطحبني إلى «سونيز» Sonny's. هناك التقى أصدقاءه وانظمّوا إلينا وفكّرتُ بأنّي حمقاء صغيرة، مغرورة لأنّي صدّقتُ ذلك لحظة رغبة في أن أقاسم نفسي الوحدة.

أدركتُ أيضاً، وأنا أراقب النّساء حول طاولتنا، بأنّ الألق والأناقة تعوزانني. باختصار لم يبق من الفتاة القاتلة التي تخيّلتُ طيلة النهار أنّي عليها سوى فتاة مُزرية منهارة، تُخفي فستانها وتنادي أعماقُها برتران الذي كان دائماً يراها جميلة. أصدقاء لوك كانوا يتحدّثون عن الألكا سلتزر Alka Seltzr وعن فوائده بالنّسبة إلى الصّباح الذي يعقب الحفلة. كان هناك إذاً العديد ممّن يتناولون الألكا سلتزر، ممّن يشعرون بأنّ أجسامهم ألعاب رائعة يستهلكونها مستمتعين ويغتنون بها بحيويّة.

ربّما بات من الضّروري أن أهجر الكتب، الحوارات، التنزّه على الأقدام، وأعتاد خوض شطآن

اللّهو الذي يمنحه المال، تفاهات، ومتع مُغرقة أخرى. أن أحاول الحصول على وسائل لتحقيق ذلك، وأن أصبح غرضاً بديعاً. هل كان لوك يحبهم؟

استدار ناحيتي مبتسماً، دعاني للرّقص. أخذني من ذراعي برقّة، أرحتُ رأسي على ذقنه ورقصنا. كان لَدَيّ وعي بأنّ جسده ملاصق لجسدي.

«تجدين المجموعة مملّة، أليس كذلك؟ قال.

كلّ تلك النّساء، إنّهنّ تزقزقن كثيراً.

- لا أعرف علبة ليليّة حقيقيّة واحدة وهذا يبهرني.

ضحك لوك.

«أنت خفيفة الرّوح دومينيك. أجدك مُذهلة. لنتحدّث بعيداً عن هنا، هيّا تعالي».

غادرنا «السونيز». أخذني لوك إلى حانة، شارع ماربوف **Marbeuf**، ورحنا نشرب باعتدال. أعرف أنّ ميلي للوويسكي يساعدني على حلّ عقدة لساني قليلاً. سرعان ما بدا لي لوك رجلاً رائعاً؛ مُغوٍ وغيرُ مخيف بالمرّة. بل لقد أبديتُ حناناً عفويّاً ناحيته.

طبعاً انتهى بنا المطاف للتطرّق إلى الحبّ. قال لي إنّه أمر جيّد، ليس بالأهمّية التي يضفونها عليه، لكن على المرء أن يكون محبوباً وأن يُحبّ نفسه بالحرارة الكافية كي يعيش سعيداً. وافقتُ برأسي. أخبرني بأنّه سعيد جدّاً لأنّه يحبّ فرنسواز كثيراً ولأنّها تحبّه كثيراً بدورها.

هنّأته مؤكّدة له إنّ ذلك لا يثير غرابتي خصوصاً أنّهما شخصان رائعان جدّاً. واستغرقتُ في كلام الودّ.

«أعني، قال لوك، إن كان ممكناً خوض مغامرة معكِ فإنّ ذلك سيعجبني للغاية».

ضحكتُ بغباء. أحسستُ أنّي لا أملك ردّة فعل.

- وفرنسواز؟ قلت.

- ربّما أخبرتُ فرنسواز. تعرفين أنّها تُكنّ لك المحبّة.

- لكن هذا سبب إضافي... قلت. ثمّ لا أدري لعلّ الأشياء لا تُقال على هذا النّحو...

كنتُ مُستاءة. الانتقال دون توقّف من وضع إلى آخر أنهكني. أخيراً بدا لي الأمر طبيعيّاً بشكل عجيب وغير لائق إلى حدّ كبير أن يعرض عليّ لوك فراشه.

«من جانب ما، قال لوك بجدّية، ثقة شيء ما. أقصد: بيننا. الله وحده يعلم أنّي عادة لا أحبّ الفتيات الشابّات. لكنّنا نتشارك شخصيّة واحدة. في النهاية أردتُ القول إنّ الأمر لن يكون بهذا الحمق، ولا بهذه السّخافة. وهذا نادر. يمكنكِ التفكير.

- هو ذاك نعم، سأفكّر.

مؤكّد أنّ مظهري في حالة يرثى لها. انحنى عليّ لوك وقبّلني على خدّي. لا تزالين تحافظين على بعض المبادئ الأخلاقيّة. لكن ليس أكثر منّي. أنت لطيفة وتحبّين فرنسواز. وتشعرين بملل أقلّ معي ممّا لو كنتِ مع برتران. آه! ها أنت ذا!

وانفجر ضاحكاً. كنتُ متضايقة. إثر ذلك كان لا بدّ أن أظهر أقلّ انزعاجاً كلّما شرع لوك في اختصار المسائل كما كان يقول. في تلك المرّة تركته يُفكّر.

«لا مشكلة، قال. لا شيء مُهمّ في ترتيب الأشياء هذا. أحبّكما وأحبّكِ. سنكون مسرورين جدّاً معاً. مرحين. هذا كلّ شيء.

- أكرهك، قلت.

قلتُ ذلك بصوت مومياء وضحكنا معاً.

التواطؤ الذي حيك بيننا في ثلاث دقائق بدا لي مريباً.

«الآن يجب أن أعود بكِ، قال لوك، لقد تأخّر الوقت. أو إذا رغبتِ ذهبنا إلى جادة برسي Bercy.

ركن لوك السيّارة. كانت السّماء بيضاء فوق السّين Seine(6) القابع بين أعمدته كطفلة تجلس بين ألعابها. كانت السّماء بيضاء ورماديّة أيضاً؛ تمضي نحو الصّباح، فوق المنازل الميتة، الجسور والخردة، ببطء، بعناد، كما تفعل ذلك كلّ بداية نهار جديد.

كان لوك يدخّن بجانبي دون أن يقول شيئاً، بهيئة لا تكاد تتحرّك. مددتُ يدي، أخذها وعدنا إلى مبيتي العائليّ. أمام الباب ترك يدي، نزلت وتبادلنا الابتسامة. ارتميتُ على فراشي، فكّرتُ أنّ عليّ نزع ملابسي، أن أغسل ساعِدَي. وضعتُ فستاني على مشجب ونمت.

الفصل الرّابع

استيقظتُ ولَدَيّ إحساس بأنّ عليّ التوصّل إلى حلّ مُشكلة. فما عرضه عليّ لوك كان فعلاً لعبة، لعبة مُغرية، لكنّها لن تُحطّم برحمة إحساساً قويّاً لدى برتران، إلى جانب شيء غامض في داخلي، إلّا أنّه لاذع ومهما حاولتُ سيظلّ مُعادياً لفكرة أنّها لعبة مؤقّتة. على الأقلّ هذا المؤقّت المتداول الذي يقترحه لوك. ثمّ لو أنّي أفهم ماذا يعني الشُغف، أو حتّى علاقة، مهما كانت قصيرة، لا يمكنني بشكل مُسبق أن أعتبرها ضرورة. ككلّ الذي يعيشون نصف كوميديا، لا أستطيع قبولها إلّا مكتوبة من جانبي، من جانبي وحدي.

إضافة إلى ذلك، أعي جيّداً، هذه اللّعبة – إن كانت موجودة، إن كان من المنطق الحديث عن لعبة بين اثنين مُعجَبين ببعضهما بعضاً، في وسع كليهما سدّ ثغرة ولو مؤقّتاً لدى الآخر ويكون له عوناً على وحدته – هذه اللّعبة الخطيرة. لا ينبغي أن أزعم بغباء قوّة أكبر ممّا هي عليه. تحدث ألفة بيني وبين الأمر كما تقول فرنسواز، مقبولة ومُحتملة بالكامل من جانب لوك، لن يكون من السّهل أن أهجره دون أن أتعذّب، لم يكن برتران قادراً على شيء آخر عدا حبّه لي. أقول هذا من باب الحنان على برتران، لكنّي أفكّر في هذا الغشّ الذي اسمه الحياة، لن يبدو أنّ ثقة ما هو مطروح بيأس أكثر من الحذر.

فيما عدا ذلك لم أقرّر أيّ شيء، كنتُ دائماً أختار. لِمَ لا أختار هذه المرّة أيضاً؟ سيكون هناك جاذبيّة لوك، الملل اليومي، المساءات. كلّ شيء سيحدث من تلقاء نفسه؛ ولن يكون هناك ضرورة لمعرفة أيّ شيء.

كان من القوّة أن أستمرّ في الذّهاب إلى الدّروس في ظلّ هذا الرّضوخ الفظيع. ألتقي برتران والأصدقاء، نخرج لتناول الغداء في شارع «كوجاس» وكلّ هذا رغم تكراره اليومي يبدو لي عاديّاً. مكاني الحقيقي كان إلى جانب لوك، أشعر بذلك بشكل مُشوّش بينما كان «جون جاك» صديق برتران مُستغرقاً في سخريته من سحنتي الحالمة.

«مستحيل، دومينيك. أنتِ مُغرَمة! لكن، برتران، ماذا فعلت بهذه الفتاة الصّغيرة الشّاردة؟ «أميرة كليف»(7)La princesse de Cleves؟

- لا أدري، قال برتران.

رمقتُه. كان مُحمَرّاً واجتنب نظراتي.

كان بالفعل أمراً لا يُصدّق: شريكي في جرائمي الصّغيرة، رفيقي منذ سنة، يتحوّل فجأة إلى

خصم! قمتُ بحركة نحوه. كنتُ أتمنى أن أقول له: برتران، أؤكّد لك، لا يجدر بك أن تتألم، هذا مؤسف جداً، لم أتمنّى ذلك».

وكنتُ بحمق سأضيف: «أخيراً، تذكر، أيام الصيف، أيام الشتاء، عرفتُك، لا يُعقل أن يُهدَم ذلك في ثلاثة أسابيع، ليس من الحكمة أن يحدث ذلك».

وكنتُ سأتمنى لو أنّه أكّد لي ذلك بعنف، أن يُطمئنني، أن يُعانقني، لأنّه يحبني. لكنّه ليس رجلاً. لدى بعض الرّجال ولدى لوك نُحسّ بنوع من القوّة التي لا برتران ولا أي من الشبان يمتلكونها. ليست التجربة...

«لا تتعبي نفسكِ، دومينيك، قالت كاترين بغطرستها المعتادة، تعالي، دومينيك، الرّجال وحوش، لنحتسي القهوة سويّاً».

في الخارج شرحت لي أنّ الأمر ليس بهذه الأهمّية وأنّ برتران في أعماقه متعلّق بي كثيراً وأنّه لا وجود لسبب يجعلني أقلق وأنزعج من نوبات مزاجه. لم أحتجّ. بعد هذا كلّه لا يجب أن تلحق الإهانة ببرتران أمام أصدقائنا.

كنتُ متقزّزة من حديثهم عن الأولاد، عن البنات، من صبيانيتهم التي يزعمون من ورائها بأنّهم يعيشون قصص حبّ، من مآسيهم، لكن كان هناك أمام عيني برتران وعذابه وهذا لم يكن هيناً. جرى كلّ شيء بسرعة! تركتُ برتران الذي يناقشون أمره معي، كانوا يؤوّلون ويدفعونني بذلك إلى ردّة فعل حادّة وإلى تعقيد المسائل، ربّما ببنية الإزعاج ما لم يكن ليتخطى مجرّد انحراف بسيط.

«أنت لا تفهمين شيئاً»، قلتُ لكاترين، الأمر لا يتعلّق ببرتران.

- حقّاً! – قالت.

استدرتُ ناحيتها ولاحظتُ على وجهها فضولاً، وهوَس النّصح، ملامح مَصاصي الدّماء، حتّى أنّي انفجرتُ ضاحكة.

«أفكّر في بيضي»، قلت بعمق.

هنا أخذت كاترين، دون أن تستغرب شيئاً، تحدّثني طويلاً عن متع الحياة، فراخ العصافير، الشمس، إلخ. «كلّ ما كنتُ سأخلّفه ورائي، جزاء جنوني!» حدّثتني أيضاً عن متع الجسد بصوت منخفض، بهمس: «يجب أن نقول الأشياء... هذا مهمّ أيضاً. أي أنها، لو أنّي فهمتُ جيداً، أقحمتني في الذّين من زاوية جمال الحياة. أيُعقل أن تكون الحياة «هذا» لأحدهم؟ لأنّي في النّهاية

مع شعوري بالملل هل كنتُ أمارس الملل بشغف. إلى جانب ذلك بدت كاترين غزيرة المعرفة بالفضاءات العاقة. جاهزة لمناقشة العدمية الوحشية التي تنتاب البنات. للأسرار التي كنتُ أقذف بها في الرّصيف بابتهاج. «للرح كاترين، وإخلاصها أيضاً، فكّرتُ بمرح». يبدو أنّي كنتُ أغني لشدّة شراستي.

تجوّلتُ ساعة، دخلتُ ستّ محلّات، تحدّثتُ مع الجميع، دون انزعاج. أحسستُ أنّي حرّة، أي أنّي سعيدة. كانت باريس ملكي. باريس للمتحرّرين، للذين لا يخزهم ضميرهم، أحسستُ دائماً بذلك، لكن بقسوة، هي للذين يعوزهم التحرّر. هذه المرّة إنّها مدينتي، مدينتي الرّائعة الذهبية الحاسمة، المدينة التي هي ملك للذين لم تُخلَق لأجلهم. كنتُ مُحلّقة في نوع من السّعادة. مشيتُ بسرعة. كنتُ مُثقلة بنفاد الصّبر، بالدّم في معصمي؛ شعرتُ بأنّي شابّة، شابّة ببلاهة. في مثل فترات السّعادة المجنونة تلك. كان لديّ إحساس بأنّي توصّلتُ إلى حقيقة أكثر بداهة من الحقائق الصّغيرة البائسة، المُكرّرة لتعاستي.

دخلتُ أحد قاعات سينما الـــ «شون إليزي» حيث تُعرَضُ الأفلام القديمة. جلس بجواري شاب. نظرة واحدة كانت كافية لأحدس بأنّه مؤنس، ربّما أشقر قليلاً. سرعان ما ألصق مرفقه بمرفقي. حرّك يداً حذرة نحو ركبتي: أمسكتُ بها قبل أن تصل. تركتُها في يدي. انتابتني رغبة في الضّحك، ضحكٍ مدرسيّ. الاكتظاظ المريع للقاعات المظلمة، العناق السرّي، الخجل، ما كلُّ هذا؟ كانت في يدي يدٌ حارّة لشابٍ لا أعرف عنه شيئاً. لم يكن لديّ ما أفعله بشابٍ في مقتبل العمر، كانت لديّ الرّغبة في الضّحك. حرّك يده وسط يدي، تقدّم بركبته. كنتُ أراقبه يفعل بفضول؛ بخوف وبنوع من التّشجيع. مثله كنتُ أخشى أن يستيقظ وقاري وأحسستُ بأنّي المرأة العجوز التي تقف غاضبة من مقعدها. خفق قلبي قليلاً: هل كان ارتباكاً بسبب الفِلم؟ الفِلم الذي كان جيداً، بسبب ما تبقّى. أعتقد أنّه يجب تخصيص قاعات للأفلام عديمة المعنى للأشخاص الذين يعانون الوحدة. استدار الشاب ناحيتي بملامح مُستفهمة، كان الفِلمُ سويديّاً، أي شريطاً باهت الألوان، مع ذلك بدا لي جميلاً إلى حدّ ما. «وسيماً، ما يكفي، لكنّ ليس من الشّباب الذين أحبّذهم»، فكّرتُ في ذلك في اللّحظة نفسها التي اقترب فيها بوجهه من وجهي بحذر. خطر لي آنذاك أنّ الذين خلفنا لابدّ أنّهم يجدون... قبّلني بشكل جيد وفي الوقت نفسه سحب ركبته، مدّ يده بحثاً عن المزيد، بمكر، بغباء، مزيداً لم أرفضه حتّى الآن، وقفتُ وخرجت. مؤكّد أنّه لم يفهم شيئاً. ووجدتُ نفسي في «الشون إليزي» وعلى شفتيّ طعم فم غريب وقرّرتُ العودة إلى قراءة رواية.

كان كتاباً مُذهلاً لسارتر، «سِنّ عقل» L'âge de raison. غصتُ فيه بمتعة، كنتُ صغيرة،

رجلٌ يعجبني، وآخر يحبني. كان عليّ أن أحلّ واحدة من أبله الصراعات التي تعترض سبيل الفتيات الشابّات: بدأتُ أصيرُ مُهقة، بل إنّ هناك رجلاً متزوّجاً، امرأة أخرى، لعبة صغيرة بين أربعة بدأت تتشكّل ذات ربيع باريسي. نسجتُ من كلّ هذا معادلة لذيذة وجافّة، متهوّرة كما كنتُ أتمنى. ثمّ كنتُ أشعر بالسّلام. راضية بكلّ هذا السّجن والصّراع، الفتعة في الأفق، قبلتُ بكلّ هذا باستهزاء.

قرأتُ، وحلّ المساء، وضعتُ كتابي. أسندتُ رأسي إلى ذراعي، راقبتُ السّماء وهي تنتقل من البنفسجيّ إلى الرّماديّ. أحسستُ فجأة بأنّي ضعيفة وعزلاء تماماً. حياتي تسيل؛ لا أفعل شيئاً، أضحك فقط. شخصٌ ما يلتصقُ بوجنتي، أضُمّه إليّ بالعنف المؤلم للحبّ. لستُ جائرة كي أحسُد برتران، لكن حزينة ما يكفي كي أحسد كلّ قصّة حبّ سعيدة، كلّ لقاء ضائع، كلّ عبوديّة. نهضتُ وخرجتُ.

الفصل الخامس

خرجتُ مرّات عديدة مع لوك خلال الأسبوعين التاليين لكن دائماً صحبة أصدقائه. أغلبهم مسافرون تعجّ رؤوسهم الفسلّية بالقصص. كان لوك يتكلّم بسرعة، بطرافة، وكان يرمقني مجاملة، محافظاً على سحنته الشاردة، المتضايقة في آن، تلك السّحنة التي تجعلني أشكّ في أنّه يهتمّ بي حقّاً. بعد ذلك يقلّني أمام الباب، ينزل من السيّارة ويُقبّلني على خدّي قبلة خفيفة قبل أن يرحل. لم يكن يتحدّث أبداً عن اشتهائه لي الذي باح لي به ذات يوم. وكنتُ أشعر بالانعتاق والخيبة في آن واحد. أخيراً أخبرني أنّ فرنسواز ستعود بعد غد وانتبهت إلى أنّ الأسبوعين قد مرّا مثل الحُلم وأنّي ألفتُ الكثير من الحكايات من العدم.

ذات صباح اتّجهنا إلى المحطّة في انتظار وصول فرنسواز، لكن دون برتران الذي قاطعني منذ عشرة أيّام. آسفة على ذلك لكنّي أيضاً انتهزتُ الفرصة كي أعيش حياة استكانة ولامبالاة كما راق لي ذلك دائماً. كنتُ أعرف بأنّه حزين لأنّه لم يزرني، وهذا يمنع أن أكون أنا نفسي حزينة.

قدمت فرنسواز مُبتسمة، قبّلتنا، وهتفت بأنّ سحناتنا سيّئة. لكن لا بأس لعلّ هذا أفضل لأنّنا مدعوّون إلى بيت أخت لوك التي هي أمّ برتران في عطلة نهاية الأسبوع. اعترضتُ متعلّلة بأنّي غير مدعوّة وأنّ علاقتي ببرتران يخيّم عليها سوء التفاهم. أضاف لوك بأنّ أخته تُنكّد عليه. لكنّ فرنسواز أنقذت الموقف: برتران طلب من أمّه دعوتي: «ربّما لتبديد الضّباب، قالت فرنسواز ضاحكة» أمّا لوك، فمُتحتّم عليه أن يتحلّى بروح العائلة من حين إلى آخر. رمقتني ضاحكة فابتسمتُ لها مغمورة بلطفها. لقد سمنت. كانت قويّة بعض الشّيء، لكن سخيّة وواثقة إلى حدّ كبير جعلني أشعر بالاعتزاز لفكرة أنّ شيئاً لم يحدث بيني وبين لوك وأنّه من الممكن أن نكون جميعاً سعداء، ثلاثتنا كذي قبل. وجدتُ برتران الذي لم يكن يسبّب لي الملل في العمق. كان مُثقّفا جدّاً وذكيّاً إلى درجة كبيرة. أنا ولوك كنّا عاقلين. رغم ذلك وأنا أجلس بينه وبين فرنسواز في السيّارة ألقيتُ عليه نظرة ولحظة بدا لي كما لو أنّي تخلّيتُ عنه وهذا في حدّ ذاته هزّ وجداني بشكل غريب ومقرف للغاية.

أخذ برتران يضحك بصورة هستيريّة، ضحك ذعر سرعان ما شاركته إيّاه والتفتت فرنسواز لدى سماعها إيّانا نضحك.

كان لديها تلك القسمات الذاهلة لأناس ودودين للغاية ممّن لا يجرؤون أبداً على الاعتراض، غالبا للدّفاع عن حياتهم.

«لمَ الضّحك؟

- هم شباب، قال لوك. عشرون سنة، إنّه عمر الضّحك بجنون.

لا أدري لماذا لم تعجبني تلك الجملة؛ لم أحبّ أن يصفنا لوك، أنا وبرتران كزوج، خصوصاً كزوج من الأطفال.

«ضحك هستيري عصبي، قلت. لأنّك تقود بسرعة ولأنّنا غير فخورين بذلك.

- رافقيني وسأعلّمك السّياقة.

إنّها المرّة الأولى التي يخاطبني فيها بمفردي على المَلأ.

ربّما هذا ما يُسمّى هفوة، فكّرت. رمقت فرنسواز لوك لحظة. ثمّ بدت لي فكرة الهفوة هذه طائشة وحمقاء. لا أومن بالهفوات التي تخفي اعترافاً، النّظرات المقطوعة، الحدس الخاطف. كان هناك جملة تأسرني في الرّوايات: «وفجأة اكتشفت أنّها كانت تكذب عليه».

وصلنا. انعطف لوك بحدّة في أحد الطّرق وارتميتُ على برتران. أمسك بي ملتصقة به، بصلابة، بحنان، وانزعجت كثيراً. لم أتحمّل أن يرانا لوك في تلك الوضعيّة. بدا لي ذلك جسيماً، وغبيّاً جدّاً أيضاً، وغير رقيق في عينيه.

«تبدين كعصفور»، قالت فرنسواز.

استدارت ونظرت ناحيتنا. كان لديها نظرة رائعة وذوقاً رفيعاً. لم تتّخذ سحنة المرأة النّاضجة المتآمرة والرّاضية، وهي تراقب عاشقين مراهقين. لم يكن يُقرأ في عينيها سوى أنّي كنتُ رائعة بين ذراعي برتران، وأنّي كنتُ مثيرة للمشاعر. يروق لي بنوع من الرّضا أن أكون مثيرة لعاطفة الآخرين، وهذا يجنّبني الاعتقاد والتّفكير والرّد.

«عصفور مُسنّ، قلت، أحسّ بأنّي مُسنّة.

- أنا أيضاً، قالت فرنسواز. لكن في وضعي هذا يُفشّ بشكل أيسر.

استدار لوك ناحيتها مُبتسما. فكّرتُ فجأة: «مُعجبان ببعضهما بعضاً؛ لا يزالان يمارسان الحبّ معاً، مؤكّد أنّ لوك ينام بجوارها، يستلقي فوقها. تُحبّه. هل يُفكّر هو أيضاً أنّ برتران يمتلك جسدي؟ هل يتخيّل ذلك؟ هل هو مثلي غيور إلى أقصى حدّ؟

«ها نحن في المنزل، قال برتران. هناك سيّارة أخرى؛ أخشى أنّ يكون الأشخاص المعهودون في ضيافة أمّي.

- في هذه الحالة نرحل، أجاب لوك. أصاب بالرّعب من ضيوف أختي العزيزة. أعرف فندقاً جميلاً على بعد خطوتين.

- كفى، قالت فرنسواز، توقّفا عن الطّالع السيئ. منزل جميل ودومينيك لا تعرفه. تعالي، دومينيك.

أخذتني من يدي ومشينا إلى بيت جذّاب محوط بالغشب. تبعتها وأنا أقول لنفسي بأنّي كدتُ أرتكب أشنع ما يُمكن فعلُه لو خُنتُها مع زوجها رغم أنّي أحبّه، وأنّي كنتُ أفضّل القيام بأيّ شيء إلّا إيذاءها. لم تكن لتعرف بطبيعة الحال.

«ها أنتم ذا»، نطق صوت حادّ.

انبجست أمّ برتران من سياج نباتي. لم أكن أراها قطّ. رمقتني بنظرة مُستطلعة كتلك التي لا تقدر ألّا تلقيها أمّهات الأولاد الشّباب على الفتيات الشابّات اللاتي يقدّمونهنّ إليهنّ. بدت لي قبل كلّ شيء شقراء وصاخبة قليلاً. ثمّ سرعان ما أخذت تحوم حولنا وهي تزقزق، وسرعان ما أحسستُ بالضّيق. كان لوك ينظر إليها كما لو أنّها كارثة. وبدا برتران قلقاً. ما دفعني إلى أن ألعب دور إنسان ظريف. أخيراً وجدتُ نفسي في غرفتي، شرعتُ بالارتياح. كان السّرير عالياً بملاءات خشنة، كتلك التي رافقتني خلال طفولتي، فتحت نافذتي على أشجار خضراء، سمعتُ حفيفها. فيما غمرت الغرفة رائحة قويّة لأرض مبلّلة وعشب.

«أعجبتك؟» سأل برتران.

بدا مُشوّشاً وسعيداً في آن واحد: خمّنتُ أنّ عطلة نهاية أسبوع له معي في بيت أمّه هي بمثابة أمر مهمّ ومُعقّد. ابتسمت له:

«لديك منزل رائع. أمّا أمّك، فلا أعرفها لكنّها تبدو لطيفة.

- باختصار، لم تجيبيني. على فكرة، أنا مُحايد.

ضحك بطريقة متآمرة شاركتُه إيّاها. أحبّ بيوت الغرباء. غرف الحمّام بالبلاط الأسود والأبيض، النّوافذ الكبيرة، الشّباب المتسلّطين. أخذني بين ذراعيه وقبّلني على ثغري برقّة. لم أحدّثه عن فتى السّينما. لم يكن ليتقبّل الأمر ببساطة. أنا نفسي أتذكّر الأمر بسوء. من بعيد هذا يترك لَدَيّ ذكرى مخجلة قليلاً. هزليّة ومُضطربة في آن، عموماً غير سارّة. خلال الفترة ما بعد الظّهيرة، كنتُ غريبة الأطوار وحزّة؛ لم أعد كذلك.

«تعالَ للعشاء»، قلتُ لبرتران الذي انحنى ليقبّلني من جديد، بعينين شاخصتين. يروق لي أن

يشتهيني. مع أني لا أحبّ نفسي إلّا قليلاً. موضة الفتاة الشابّة المتوحّشة والشابّة الباردة «قلبي أسود وأسناني بيضاء» تبدو لي كوميديا أناس عُجّز.

كان العشاء قاتلاً. فعلاً كان هناك أصدقاء والدة برتران:

زوج ثرثار ومتحزّك. أثناء التحلية، الزوج الذي اسمه ريتشارد ويرأس لا أدري أيّ مجلس إدارة، لم يُقاوم رغبته في خوض الأغنية القديمة:

«وأنتِ، أيّتها الفتاة، هل أنتِ من أولئك الموجودين التعساء؟ في الواقع عزيزتي مارتا – توجّه الآن بخطابه إلى والدة برتران – هؤلاء الشباب المُغرّرُ بهم يخرجون عن قدرتي على الفهم، كنّا نقيم السوق لكن بمرح، هذا، في وسعي أن أجزم به لكم».

ضحكت زوجته ووالدة برتران بتناغم. تثاءب لوك، فيما كان برتران يُجهّز خطاباً لن يسمعه أحد. بسريرتها الطيّبة حاولت فرنسواز بشكل ملحوظ أن تفهم السّبب الذي يجعل من هؤلاء مملّين، بالنّسبة إليّ كانت المرّة العاشرة التي يظهر فيها رجال وردّيون وآخرون رماديّون روح الدّعابة أمامي وهم يلوكون بمتعة أكبر بكثير من أن يدركوا معنى كلمة «وجوديّة». لم أجب.

«عزيزي ريتشارد، قال لوك، أخشى أنّ هذا ليس من عمرك – أعني: عمرنا – التهريج. هؤلاء الشّباب يمارسون الحبّ. هذا أيضاً رائع. نحتاج إلى مكتب وسكرتيرة كي نقيم مهرجاناً».

لم يجب الرّجل. بقيّة العشاء مرّت دون توهّج، كان الجميع يتحدّثون ما عداي أنا ولوك؛ لوك هو الوحيد الذي كان يضجر مثلي بالحدّة نفسها، وتساءلت ما إذا كانت هذه هي أولى الأشياء التي نتشاركها: ذاك النّوع من عدم القدرة على التكيّف مع الملل.

بعد العشاء، ولأنّ الطّقس كان جميلاً فقد انتقلنا للشّرفة؛ راح برتران يجلب الويسكي. همس لي لوك بعدم الإفراط في الشّرب:

- على أيّ حال أنا أضبط نفسي جيداً، علّقتُ منزعجة.

- سأكون غيوراً، أضاف. لا أحبّ أن تسكري وتقولي أشياء حمقاء إلّا معي.

- وبقيّة الوقت ماذا أفعل؟

- وجهاً حزيناً، كالذي حملته طيلة العشاء.

- وأنت، قلت، وجهك أنت، أتعتقد بأنّه كان ينفجر غبطة؟... خلافاً لما تدّعي، لا يُعقل أن تكون من الجيل الجميل.

ضحك.

«تعالي نتمشى في الحديقة قليلاً.

- في الظلام؟ وبرتران والآخرون...

كنتُ مذعورة.

«أصابونا بالملل كفاية. هيّا تعالي».

أخذني من ذراعي، التفتُّ إلى البقيّة. لم يكن برتران قد أحضر الويسكي. فكّرتُ أنّه سيخرج فوراً للبحث عنّا حال عودته، سيجدنا تحت شجرة، ربّما قتل لوك مثلما حدث في ***Pelleas et Melisande*** بيلياس وميليزاند(8).

«سأصطحب هذه الشابّة في نزهة شاعريّة» قال على نحو مسرحي.

لم ألتفت لكنّي سمعتُ فرنسواز تضحك.

دخل لوك في ممشى بدا فيه الحصى أبيض في البداية ثمّ في العمق مُعتِماً. فجأة أحسستُ بالخوف. انتابتني رغبة في أن أكون عند أهلي على ضفاف الـــ«يون» Yonne.

«أنا خائفة»، قلتُ للوك.

لم يضحك بل أمسكني من يدي. تمنّيتُ أن يظلّ كذلك دائماً، صامتاً، عميقاً قليلاً، حامياً وحنوناً. ألّا يتركني، أن يقول لي أحبّكِ، أن يحتضنني أن يأخذني بين ذراعيه. توقّف، أخذني بين ذراعيه. كنتُ ملتصقة بسترته، العينان مُغمضتان. وكلّ الوقت الذي مضى لم يكن سوى هروب كبير من هذه اللّحظة. وتلك الكفّ التي احتضنت وجهي وذاك الثّغر الحارق العذب، المُعدُّ لشفتيّ. أبقى على وجهي بين يديه ضاغطاً عليه بينما كنّا نتبادل القبل. مرّرتُ ذراعيّ حول عنقه. كنتُ خائفة من نفسي، منه، من كلّ ما عدا تلك الآونة. أحببتُ ثغره فوراً، كثيراً. لم ينطق بكلمة، كان فقط يُقبّلني، مُصوّباً رأسي من حين إلى آخر كي يلتقط نفساً. كنتُ أرى وجهه فوق وجهي. في العتمة، شارداً ومنتبهاً في آن، كقناع. ثمّ عدنا إلى أنفسنا ببطء. في لمحة لم أميّز وجهه وأغمضتُ عينيّ بسبب الحرارة التي غمرت صدغيّ ورمشيّ وحنجرتي. شيء ما اجتاحني لا أعرفه، شيئاً غير مُتعجّل، ليست رغبة نافدة الصّبر، إنّما شيئاً مُغتبطاً، طويلاً ومُضطرباً.

حرّرني لوك وتعثّرتُ قليلاً. أخذني من تحت ذراعي ودون كلمة قمنا بجولة في الحديقة. حدّثتُ نفسي بأنّي أشتهي تقبيله حتّى مطلع الفجر دون إيماءة أخرى. برتران تنهكه القُبَل

بسرعة: الرّغبة تُحوّلها إلى حركات لا قيمة لها في نظره؛ لم تكن سوى إحدى محظات المتعة، لا أمراً لا ينتهي، كافياً، كما برهن لي لوك على ذلك.

«حديقتك رائعة، قال لوك لأخته مُبتسماً. للأسف لقد تأخّر الوقت.

- لا يتأخّر الوقت أبداً، قال برتران بجفاف.

لم يغادرني بنظراته. تجنّبتُ النّظر إليه. لم أكن أرغب في أن أكون بمفردي، في سواد غرفتي، لأتمكّن من استعادة لحظات الحديقة وأستوعبها. أزحتُها إذاً طيلة الحوار. سأكون غائبة تماماً؛ ثمّ سأصعد إلى غرفتي ترافقني تلك الذّكريات. سأستلقي على بطني، عيناي مفتوحتان، وأظلّ أدير الشّريط وأديره إلى أن أتلفه أو أن أجعل منه شيئاً مُهمّاً.

في ذلك المساء أغلقتُ الباب، لكنّ برتران لم يأتِ ويطرق.

الفصل السادس

مرّ الصّباح ثقيلاً. كانت يقظتي رائعة جدّاً، عذبة جدّاً كيقظتي خلال طفولتي. لكنّه لم يكن يوم وحدة طويل وأصفر مُقطّعاً بالقراءة ما ينتظرني: كان «الآخرون». الآخرون الذين كان لي إزاءهم دور لابدّ من أن ألعبه، دورٌ أنا وحدي مسؤولة عنه. تلك المسؤوليّة، ذلك النّشاط، ضغطتْ على حنجرتي في البداية، ثمّ غصتُ في وسادتي بإحساس يشبه الوعكة. وتذكّرتُ ليلة البارحة، قبل لوك وتمزّق شيء ما برفق في داخلي.

غرفة الحمّام كانت مُدهشة. في الماء رحتُ أدندن بأغنية مسرورة بحقّ: «والآن تحثّم، تحثّم اتّخاذ قرار، قرار» على نغمة جاز.

أحدهم ضرب على الحائط بإصرار.

«هل يجوز ترك الزّهاء نائمين؟»

كان صوت لوك المُشرق. لو أنّي ولدت قبل عشر سنوات، قبل فرنسواز، لكنّا استطعنا أن نعيش معاً ولكان منعني من الغناء صباحاً ولنمنا معاً ولكنّا سعداء، وقتاً طويلاً، بَذل هذا الطّريق المسدود الذي نحن فيه. لأنّه حقّاً طريق مسدود، ربّما لهذا لم نوغل فيه، رغم لامبالاتنا ومللنا. كان لابدّ أن أهرب منه، أن أبتعد: خرجتُ من الحوض. ووضعتُ رداء حمّام من الوبر تفوح منه رائحة دواليب الزّيف القديمة ولففتُ به نفسي قائلة إنّ الحكمة تقضي بفسح المجال للأشياء كي تحدث أو ألّا تحدث وأنّه لا ينبغي تشريح الظّواهر دائماً، بل أن نكون هادئين، وجيّدين: غمغمت بنيّة شرّيرة.

جرّبتُ بنطلوني القطني الذي اشتريته ورأيتُ نفسي في المرآة. لم تعجبني هيأتي، كانت تسريحتي سيّئة ووجهي دقيقاً وسحنته طيّبة. أحببتُ أن يكون لي وجه متناسق وضفائر وعينان غامضتان كالتي لدى الفتيات المُقبلات على تعذيب الرّجال، وجه قاس ومُشتهى في آن واحد. حين مِلتُ برأسي إلى الخلف، بدوتُ ربّما مُغربة، لكن أيّ امرأة في وضع مماثل لا تكون مُغربة؟ ثمّ إنّ هذا البنطلون كان رديئاً؛ لقد بدوتُ عريضة أكثر من اللّازم: لا أجرؤ أبداً على الوصول إلى هذا الشّكل. كان شكلاً يائساً أعرفه جيّداً؛ صورتي لا تروق لي إلى حدّ كان سيجعلني بغيضة بقيّة اليوم لولا أن تدخلت فرنسواز ورتّبت بحكمة كلّ شيء.

«صغيرتي دومينيك، كم أنتِ جذّابة! تبدين أصغر وأكثر حيويّة.

أنتِ حسرة حيّة بالنّسبة إليّ».

كانت جالسة على سريري ونظرتُ إلى المرآة.

«لماذا الحسرة؟»

أجابتني دون أن تحوّل نظراتها عن صورتها:

«آكل الحلوى بشراهة بذريعة أني أحبها. ثمّ هذه التجاعيد».

كان لديها تجاعيد جادّة في زاويتي عينيها. وضعتُ إصبعي على التجاعيد:

أنا، أجدها رائعة، قلتُ بحنان. كم من الليالي والبلدان والوجوه تكفي لترسم هذه الخطوط الصغيرة... هنيئاً لكِ. ثمّ إنها علامة على أنّك على قيد الحياة و... لا أدري، أجدها جميلة، مُعبّرة، مربكة. يصيبني الرّعب من الرؤوس الناعمة.

انفجرت ضاحكة:

«لتواسيني، ستتسبّبين في إغلاق معاهد التجميل. هذا لطف منكِ، دومينيك. أنتِ دافئة للغاية».

انتابني الخجل.

«لستُ بهذا اللُّطف.

- أحرجكِ؟ الشّباب يُفزعهم عادة أن يكونوا لُطفاء. لكنّك لا تقولين شيئاً مشينا أو في غير محلّه. وتحبّين النّاس كثيراً. أنا أجدك مثاليّة.

- لستُ كذلك.

مرّ وقت طويل لم أتحدّث فيه إلى نفسي. رغم أنّها كانت رياضة مارستُها كثيراً حتّى السّابعة عشرة من عمري. لكنّي صرتُ أشعر بنوع من الإنهاك. في الحقيقة لا يمكنني أن أهتمّ بنفسي، أن أحبّ نفسي، إلّا لو أحبّني لوك واهتمّ بي.

تلك الخاطرة الأخيرة كانت سخيفة.

«أبالغ، قلتُ بصوت مرتفع.

- وشاردة بصورة لا تُصدّق، قالت فرنسواز.

- لأنّي لا أحبّ، قلتُ.

رمقتني بنظرة. أيّ رغبة اجتاحتني في أن أقول لها: «فرنسواز، هل يُمكنني أن أحبّ لوك، أنتِ أيضاً أحبكِ كثيراً، خذيه وامضي بعيداً».

«وبرتران، هل انتهت علاقتكما؟»

هززتُ كتِفيّ:

«لم أعد أراه. أقصد: لم أعد أبصره.

- ربّما عليك إطلاعه بذلك؟

لم أجب. أكنُّ له الحبّ. ابتسمت فرنسواز:

«أفهم. لا شيء سهل أبداً. هيا للغداء. لمحتُ في شارع مونمارتر «بلوزّة» ستكون رائعة مع هذا البنطلون. سنذهب إليها معاً»...

تحدّثنا بغبطة ونحن ننزل السُلّم. هذا النوع من المواضيع لا يُثيرني لكنّي أحبّ الحديث هكذا حتّى لا أقول شيئاً، اقتراح نعت، الوقوع في الخطأ كي تسخط، الضُحك.

في الأسفل كان لوك وبرتران يتناولان الفطور. كانا يتحدّثان عن الاستحمام:

«يمكننا الذّهاب إلى المسبح؟» كان برتران من يتحدّث. لابدّ أنّه يعتقد بأنّه يقاوم أفضل من لوك في هذه الشّمس الأولى. أو ربّما لم تكن لديه فكرة بهذه الذّناءة؟

«فكرة ممتازة. سأعلّم دومينيك السّياقة في الآن نفسه.

- لا جنون، لا جنون، قالت أمّ برتران التي دخلت للتوّ مرتدية ثوباً من نوع باذخ. نِعمْ جيّداً؟ وأنتِ صغيرتي؟

انزعج برتران. سحنة الغضب لديه لا تناسبه البتّة. أحبّه مسروراً. نحبّذ أن يكون النّاس الذين نسبّب لهم الألم فرحين.

ذاك يُسبّب ألماً أقلّ.

نهض لوك. يبدو بشكل ملحوظ أنّه لا يتحمّل وجود أخته. يضحكني ذلك. تملّكني أيضاً نوع من الكره الجسدي، لكنّي اضطررتُ إلى إخفائه. كان هناك شيء ما صبياني لدى لوك.

«سأحضر ثوب السّباحة من فوق».

وسط فوضى صاخبة، راح كلّ منّا يُجهّز أغراضه. أخيراً صرنا جاهزين تماماً. التحق برتران

بأنه في سيارة أصدقائها، وبقينا نحن الثلاثة.

«قودي»، قال لوك.

كانت لدى لوك بعض المبادئ الضبابية، لكنّ الأمر تمّ بشكل غير سيئ على أيّ حال. كان لوك بجانبي وكانت فرنسواز في الخلف تتحدّث غير مدركة للخطر. من جديد قفز إلى خاطري حنين عنيف لما كان يمكن أن يحدث: السفر الطويل مع لوك وهو بجواري، الطريق الأبيض يمتدّ أمامنا تحت وطأة الأضواء، الليل، أنا متكئة على كتف لوك، لوك القويّ وراء المقود، الفسرع. فترات الفجر في البداية، الشروق فوق البحر...

«أتدري، لم أرَ البحر في حياتي»...

خيّم الاستنكار.

«سأريكِ إيّاه»، قال لوك بهدوء.

التفتُّ إليّ وابتسم. كان ذلك بمثابة وعد. لم تُصغِ إليه فرنسواز وتابعتْ:

- في أوّل فرصة نذهب فيها إلى البحر، لوك، يجب أن نأخذها معنا. ستقول: يا للماء، يا للماء! مثل لا أدري من.

- ربّما سبحتُ أوّلاً، ثمّ تكلّمتُ.

- تعلمين، إنّه جميل جدّاً، قالت فرنسواز. الشواطئ صفراء، بصخور حمراء، وكلّ ذلك الماء الأزرق الذي يمتدّ...

- أعشق طريقتك في الوصف، قال لوك ضاحكاً: صفراء، زرقاء، حمراء، كتلميذة. تلميذة صغيرة، طبعاً، أضاف بنبرة اعتذار وهو يستدير نحوي. ثمّة تلميذات مُسنّات، عالقات جدّاً، جدّاً. التفتي إلى اليسار، دومينيك، لو أمكنك»...

يمكنني. وصلنا إلى أرض مُعشّبة في وسطها كان هناك مسبح طافح بماء صافٍ أصبتُ بالضقيع لرؤيته.

سرعان ما صرنا على حافّته بملابس السّباحة.

لمّا اعترضني لوك وهو خارج من مقصورته كان يبدو عليه الانزعاج. سألته عن السّبب فابتسم مُحرَجاً:

«لا أجد نفسي وسيماً».

بالفعل لم يكن وسيماً. كان طويل القامة، نحيفاً، فقوّساً، وغير أسمر تماماً، لكنه كان حزيناً. تناول منديله ووضعه أمامه بحرص، كان في عزّ سنّ الجحود، ما جعلني أحنو عليه.

«هيا، هيا، قلتُ ببهجة، لستُ دميماً إلى هذا الحدّ!»

ألقى عليّ نظرة مائلة، مصدوماً تقريباً وانفجر ضاحكاً.

«بدأتِ تنقصين من احترامي، أنتِ!»

ثمّ جرى وارتمى في الماء. طفا وهو يطلق صرخات تنمّر وجلست فرنسواز على الحافّة. كانت تلك الهيئة أفضل مقا لو كانت ترتدي ملابسها. لقد بدت كتمثال في اللّوفر.

«إنّه بارد بشكل فروّع، قال لوك، ورأسه خارج الماء. يجب أن يكون المرء مخبولاً كي يسبح في شهر ماي.

- في ابريل إيّاك أن تنزع عنك خيطاً واحداً، أمّا في ماي فافعل ما شئت، هتفت والدة برتران بلغة مُنمّقة. لكن ما إن لامست الماء بأطراف قدميها أسرعت لترتدي ملابسها.

كنتُ أراقب تلك الفرقة المُغرّدة، البيضاء المائجة، حول المسبح، وأحسستُ بأنّي مغمورة بطاقة عذبة في الوقت نفسه الذي خطرت لي فيه فكرة صغيرة: «لكن، ماذا أفعل هنا؟»

«تسبحين؟»، سأل برتران.

كان أمامي وكنتُ أرمقه موافقة. أعرف أنّه يمارس الأثقال كلّ صباح: أمضينا مرّة عطلة نهاية أسبوع معاً، حسِبَ أنّ أرقي هو نوم عميق فراح عند الفجر يقوم بحركات مختلفة قبالة النّافذة، ضحكتُ آنذاك بصمت، أضحكني ذلك حتّى دمعت عيني لكن يبدو أنّها أتت أكلها معه فقد اكتسب هيئة صحّية نظيفة.

«فرصة لنا كي نحصل على بشرة داكنة، قال. انظر الآخرين.

- إلى الماء، قلت. خشيت أن يستغرق في احتجاجات غاضبة ضدّ أمّه التي كانت تضايقه.

ارتميتُ في الماء بعزوف كبير، قمتُ بلفّة في المسبح لحفظ الشّرف، ثمّ خرجت مُرتعشة. جفّفتني فرنسواز بمنشفة. أتساءل لِمَ لَمْ تنجب أطفالاً، هي التي خُلقت خصّيصاً كي تكون أمّاً بوركيها العريضين، وجسمها المتفتّح ورقّتها. كان أمراً مؤسفاً جداً.

الفصل السابع

كان لي موعد مع لوك بعد يومين من عطلة نهاية الأسبوع تلك، على الشاعة. حدسث أنّ شيئاً ما خانقاً لا يمكن تداركه سيقع بيننا مع كلّ محاولة عابثة جديدة. كنث مُستعدّة، أخيراً، ككلّ فتاة شابّة من القرن السابع عشر، لأطلب منه تصحيح قبلة.

كان موعدنا في حانة على جادّة «فولتير». لدهشتي كان لوك هناك. كانت سحنته سيئة جداً، وبدا مُتعباً. جلسث بجانبه وسرعان ما طلب كأس ويسكي. ثمّ سألني عن أخبار برتران.

«أحواله جيّدة.

- يتألّم؟

لم يسأل بنبرة ساخرة، بل هادئة.

«لِمَ قد يتألّم؟ سألث بغباء.

- لأنّه ليس سخيفاً.

- لا أفهم لماذا تحدّثني عن برتران. هذا... إيه...

- ثانوي؟

طرح سؤاله بتهكّم هذه المرّة. نفد صبري:

«لا ليس ثانوياً، لكن في النهاية لا شيء يستحقّ أن نتحدّث عن أشياء خطيرة، لِمَ لا نتحدّث عن فرنسواز».

انفجر ضاحكاً:

هذا مُضحك، سترين. في حكايات مماثلة، الـــ... حسناً لنقل إنّ رفيق الآخر سيبدو لك دائماً عائقاً أكثر جدّية من شريكك. فظيع أن يُقال ذلك، لكن حين نتعرّف على شخص، نفهم طريقته في المعاناة وهذا مقبول كفاية. مقبولاً، لا، لكن معروفاً على الأقلّ وغير مخيف.

- لا أعرف بشكل جيّد طريقة معاناة برتران.

- لم يُتح لك الوقت. مضى على زواجي عشرُ سنوات. لقد رأيث فرنسواز تتألّم. إنّه أمر مُريع.

لبثنا ساكتين برهة. مؤكّد أنّنا كنّا نتخيّل فرنسواز تتألّم. في مخيّلتي هذا يُترجَم بفرنسواز

فلتفتة إلى حائط.

«هذا حمق، قال لوك أخيراً. لكن تفهمين إنه أقل تعقيداً مما أتصوّر».

تناول كأسه واحتساه بحركة واحدة مال لها رأسه إلى الوراء.

شعرتُ لوهلة بأني في السينما. حاولتُ إقناع نفسي بأني لستُ خارج الوضع إلّا أني كنتُ في حالة لا واقعية تماماً.

كان لوك هناك، عما قريب سيكون عليه اتّخاذ قرار. كلّ شيء يسير على ما يرام. انحنى قليلاً إلى الأمام وكأسه بين يديه فارغ، أدار قطع الجليد بحركات منتظمة. كان يتحدّث متحاشياً النظر في عينَيّ.

«كانت لي، طبعاً، مغامرات. فرنسواز كانت تجهل ذلك غالباً. ما عدا في مرّات بائسة قليلة. لا شيء من كلّ هذا كان جدّياً».

استقام بنوع من الحنق:

«معكِ أنت كذلك، الأمر ليس جدّياً. لا شيء يساوي فرنسواز».

كنتُ أصغي إليه دون ألم، لا أدري لماذا. ربّما اعتقدتُ أنّي أحضر درس فلسفة لا صلة له بي.

«لكن هذا مختلف. في البداية كانت مجرّد رغبة منّي، كما قد يشتهي رجل مثلي صغيرة متنمّرة وعنيدة. قلت لك هذا من قبل، أردتُ ترويضك، قضاء ليلة معك. لم أفكّر في...

فجأة رمقني، أخذ يديّ، ونطق برقّة. نظرتُ إلى وجهه من قريب، تفحّصتُ كلّ قسماته، كنتُ أستمع إلى كلامه بشوق، أخيراً وُهبتُ انتباهاً لا ثغرة فيه، متحرّرة من نفسي، دون صوت يأتيني من الداخل.

«لم أفكّر في أنّي سأكنّ لك التّقدير. أحترمك كثيراً، دومينيك. لن أحبّك أبداً على «وجه حقيقيّ»، كما يقول الأطفال، إنّما نحن متشابهان، أنتِ وأنا. ليست لديّ الرّغبة في أن أنام معك، بل أن أعيش معك، أن أذهب معك في عطلة. سنكون سعداء جدّاً، حبيبين، سأعلّمك البحر، المال، وشكلاً من أشكال الحرّية. سيكون الضّجر أقلّ وطأة. هذا كلّ شيء.

- أرغب في ذلك بشدّة أنا أيضاً، قلت.

- ثمّ أعود إلى فرنسواز. ماذا تخشين؟ أن تتعلّقي بي. أن تتألّمي فيما بعد؟ ماذا؟ هذا أهون من الإحساس بالملل. أنت تفضّلين أن تكوني سعيدة وحزينة، أليس هذا أفضل من لا شيء؟

- صحيح، قلت.

- ماذا ستخسرين، قال لوك كما لو أنه يريد إقناع نفسه.

- ثمّ أتألّم فيما بعد، أتألّم، لا يجدر أن نبالغ، أضفت. قلبي ليس رقيقاً إلى هذا الحدّ.

- حسناً إذاً، قال لوك. سنرى، سنفكّر في الأمر، لنتحدّث في أشياء أخرى الآن. تريدين كأساً أخرى؟

شربنا في صحّتنا. ما أراه بوضوح هو أنّنا ربّما انطلقنا في السيّارة معاً. كما تخيّلته، ظننته مستحيلاً. بعد ذلك سأعمل جاهدة على ألّا أتعلّق به، آخذه بعين الاعتبار الجسور المقطوعة بيننا. لستُ مجنونة في النّهاية. خرجنا في نزهة على الضّفاف. كان لوك يضحك معي، يحدّثني. كنتُ أيضاً أضحك، قلت في نفسي، معه يجب دائماً أن نضحك وأحسستُ أنّي أملك من المرح ما يكفي، يقول ألان(9)Alain: «الضّحك هو عينُ الحبّ». لكنّها لم تكن قضيّة حبّ، بل تفاهم. ثمّ في النّهاية كان لَديّ من الاعتزاز ما يكفي: لوك يفكّر بي، يُكنّ لي التّقدير، ويشتهيني: يمكنني أن أنعت نفسي بالظّريفة، بالجديرة بالاحترام، بالمثيرة.

موظّف ضميري الصّغير، الذي ما إن أفكّر في نفسي، حتّى يرسل إليّ صورة حقيرة، ربّما كان قاسياً ومتشائماً إلى أقصى درجة.

لمّا افترقنا، دخلت حانة، واحتسيتُ كأس ويسكي بالأربع مائة فرنك التي يُفترَضُ أن تُؤمّن لي عشائي. بعد عشر دقائق شغرتُ بغبطة مذهلة، أحسستُ بأنّي رقيقة، طيّبة، مرحة.

كنتُ في حاجة إلى لقاء شخص ليستفيد من ذلك، إلى أن أشرح له الأشياء العظيمة. العذبة والحادّة التي أعرفها عن الحياة. كنتُ سأتكلّم ساعات. نادل الحانة كان لطيفاً، لكن غير مميّز. اتّجهتُ إلى مقهى «سان جاك». التقيتُ برتران. كان وحيداً مع بعض الفناجين. جلستُ بجانبه وكان يبدو سعيداً بلقائي. «كنتُ أفكّر فيك للتّو، هناك فرقة «بوب» في الـ«كنتوكي». Kentucky، ماذا لو ذهبنا؟ مرّ وقت طويل لم نرقص.

- ليس معي درهم واحد، قلتُ بخشوع.

- أعطتني أمّي عشرة آلاف فرنك في ذلك اليوم. نحتسي كؤوساً أخرى ونغادر.

- لكنّها الثّامنة، اعترضت، والحفلة لا تبدأ قبل العاشرة.

- نشرب كؤوساً كثيرة، قال برتران بغبطة.

كنتُ مسرورة. أعشق الرّقص في لوحات سريعة على البوب مع برتران.

كان الجهاز يُصدر موسيقى جاز جعلتني أحرّك ساقاي دون أن أشعر. حين دفع برتران حساب ما طلبناه أدركتُ أنّ ما شربه ليس قليلاً، فقد كان مسروراً للغاية، في الأخير هو أفضل صديق لي، هو أخي وأحبه من الأعماق.

دخلنا خمساً أو ستّ حانات حتّى العاشرة. آنذاك كنّا ثملين تماماً. سعيدَين، بل لم نكن حشاشين. حين وصلنا إلى الـ«كنتوكي» كانت الفرقة قد بدأت العزف. لم يكن هناك أحد تقريباً وكان المرقص لنا وحدنا أو يكاد. عكس ما توقّعت، رقصنا جيداً؛ كنّا مسترخِيَين إلى أقصى حدّ. أحببتُ تلك الموسيقى أكثر من أيّ وقت مضى؛ الاندفاع الذي يمنحني إيّاه، وذلك الاستمتاع الذي يجده كامل جسمي في مجاراتها.

لم نكن نجلس إلّا لنشرب.

«الموسيقى، همستُ لبرتران، موسيقى الجاز إنّها تهوّر متسارع».

استوى فجأة:

«هو ذاك فعلاً. هذا مهمّ جداً، جداً. معادلة رائعة، دومينيك، براڤو!

- أليس كذلك؟ قلت.

- ويسكي مقزّز في الـ«كنتوكي». لكنّ الموسيقى جميلة على الأقلّ. الموسيقى تساوي عدم اكتراث... عدم اكتراثٍ بماذا؟

- لا أعرف. اسمع البوق، هذا ليس تهوّراً وحسب بل ضرورة. عليه أن يمضي مع النّوتة إلى الآخر، هل أحسستُ بذلك؟ ضروري. مثل الحبّ، أتعلم، الحبّ الجسدي، في وقت مُعيّن يجب أن... حيث لا يمكن للأشياء أن تقع إلّا على ذلك النّحو.

- مؤكّد. هذا مطابق تماماً. هل نرقص؟

أمضينا اللّيل في الشّرب والرّقص وتبادل المحاكاة الصوتيّة. في الأخير لم يعد هناك غير دُوار الوجوه، الأرجل، وذراع برتران الذي كان يُرسلني بعيداً عنه، والموسيقى التي تتلقّفني، وتلك الحرارة التي لا تُصدّق والمرونة التي غمرت أجسامنا...

- سيغلقون، قال برتران، إنّها الرّابعة.

- أغلقوا عندنا أيضاً، لاحظت.

- لا بأس، قال.

كان صحيحاً أنه لا ضير. سنعود إلى بيته، سنستلقي على سريره وستكون الأمور عادية وسيكون من الطبيعي ككل الأشياء أن يكون فوقي ثقل برتران وأن نكون سعداء سوياً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثامن

في الصباح كنتُ ممدّدة إلى جانبه، كان ينام ووركُه لصق وركي، مؤكّداً أنّ الساعة مبكّرة؛ لم يعد في إمكاني العودة إلى النوم وكنتُ أقول في نفسي، ليس أكثر منه، رغم أنه كان غارقاً في الحلم، لستُ هنا. كان كما لو أنّ أناي الحقيقيّة بعيدة جداً، أبعد من المنازل في الضواحي، أبعد من الأشجار والحقول والطفولة، تقف بلا حركة في إحدى الممرّات. كما لو أنّ هذه الفتاة الشابّة المائلة على هذا النائم ليست سوى طيف باهت للأنا الهادئة، الجامحة، التي كنتُ دائماً أحاول إزاحتها كي أعيش. كأنّي كنتُ أفضّلُ حياةً أبديّة، تاركة كالعصافير ذلك التمثال في طرف الممرّ، في الظلام وعلى كتفه جميع احتمالات الحياة الممكنة والمرفوضة.

انسحبتُ، ارتديتُ ملابسي... استيقظ برتران، سألني، تثاءب، مرّر يده على خدّيه وعلى ذقنه، تذمّر من لحيته. أعطيتُه موعداً في المساء وعدتُ إلى غرفتي لأعمل. كانت الحرارة مُستعرة، والوقت حوالي منتصف النهار. كان من المفترض أن أتناول الغداء مع لوك وفرنسواز: لم يكن ضرورياً جداً أن أعمل لمدّة ساعة. خرجتُ لاقتناء علبة سجائر، عدتُ بعد ذلك، دخّنتُ واحدة وانتبهتُ فجأة وأنا أشعلها إلى أنّي لم أقم بحركة واحدة من حركاتي طيلة فترة الصباح. إلى أنّه طيلة ساعات لم يحدث شيء ما عدا غريزة الحفاظ على الطقوس الصباحيّة. لا شيء طيلة ساعات. أين كنتُ سأجدها؟

لا أؤمن بالابتسامة الإنسانيّة الساحرة في الأوتوبيس ولا بالحياة الحافلة بالشارع ولا أحبّ برتران. أريد أحداً ما أو شيئاً ما. قلتُ هذا بصوت عالٍ تقريباً وأنا أشعل سيجارتي: «أحداً ما أو شيئاً ما» وبدا لي دراميّاً. دراما تراجيديّة وطريفة في آن معاً. وهكذا، مثل كاترين باتت لديّ أوقات يطغى عليّ فيها الإحساس بالمرارة. أحبّ الحبّ والعبارات المرتبطة بالحبّ، «حنون، قاس، رقيق، محلّ ثقة، مبالغ»، ولا أحبّ أحداً. لوك، ربّما، لو كان هنا. لكنّي لم أجرؤ على التفكير فيه منذ البارحة. لا أحبّ طعم الإحجام هذا الذي يملأ حنجرتي حين أتذكّره. كنتُ أنتظر لوك وفرنسواز حين انتابني غثيان غريب جعلني أسرع إلى حوض الغسيل. حين انقشع الدُّوار رفعتُ رأسي ورحتُ أتأمّل نفسي في المرآة. وأُتيح لي الوقت كي أغذّ. «إذاً، قلت بصوت مرتفع، إنّه يحدث!» هذا الكابوس، الذي أعرفه جيداً والذي لا يمكن أن أخطئه، إنّه يعود. لكن هذه المرّة... لعلّها آثار ويسكي البارحة وليس ثمّة ما يدعو إلى الاضطراب. كنتُ أجادل نفسي بقوّة وأنا أتأمّل نفسي في المرآة بمزيج من الفضول والازدراء. كنتُ دون شكّ قد وقعتُ في الشرك. سأخبر فرنسواز بذلك. فرنسواز وحدها من يمكنه أن ينتشلني من كلّ هذا.

لكنّي لم أقل شيئاً لفرنسواز. لم أجرؤ، ثمّ في الغداء جعلنا لوك نشرب؛ لذا نسيتُ قليلاً.

تعقّلت. لكن هل يمكن أن يكون برتران، لشدّة غيرته من لوك، قد جنح إلى هذا الحلّ للإمساك بي؟ اكتشفتُ في نفسي كلّ العلامات.

غداة ذلك الغداء، بدأ أسبوع صيف مبكّر، كما لم أتخيل أن يحدث ذلك أبداً. تجوّلتُ في الشوارع بسبب الحرارة التي لا تُطاق في غرفتي. كنتُ أسأل كاترين عن الحلول الممكنة دون أن أبوح لها بشيء. لم أعد أرغب في رؤية لوك وفرنسواز، تلك الكائنات الحرّة والقويّة. كنتُ متأكّدة من أنّي أنتظر طفلاً من برتران، وأحسستُ بأنّي هدأت أكثر. كان لابدّ من أن أتصرّف...

في اللّيلة التي سبقت الامتحان علمتُ أنّي كنتُ مخطئة. وأنّه كان مجرّد كابوس وأجريتُ الاختبار الكتابي وأنا أضحك من الارتياح. ببساطة لم أكن أفكّر سوى في ذلك مدّة عشرة أيّام وأعدتُ اكتشاف الآخرين بانبهار. كلّ شيء بات ممكناً ومرحاً من جديد. صعدت فرنسواز صدفة إلى غرفتي وفزعت من الحرارة الحارقة داخلها وعرضت عليّ أن أذاكر الشّفويّ عندهم في البيت. رحتُ أعمل إذاً فوق السجّاد الأبيض لمنزلهم، بنوافذ نصف مقفلة، وحدي. صعدت فرنسواز عند الخامسة تقريباً، أرتني مُشترياتها، حاولت دون إلحاح في الإقناع أن تسألني عن برنامجي، وانتهى كلّ ذلك بالمزاح. وصل لوك وشاركنا الضّحك. أخذني إلى العشاء في إحدى الشّرفات ثمّ أقلّني إلى غرفتي. يعود لوك قبل فرنسواز يوماً واحداً في الأسبوع، يصل إلى الحجرة حيث أعمل، يجثو على ركبتيه على السجّاد بالقرب منّي، يأخذني بين ذراعيه، يقبّلني فوق دفاتري دون أن ينبس بكلمة. بدا لي أنّي وجدتُ شفتيه كما لو أنّي لم أعرف غيرهما وأنّي لم أكن أفكّر إلّا في هذا طيلة خمسة عشر يوماً. ثمّ قال إنّه سيكتب لي أثناء العطلة وإذا أردتُ، ربّما أمكننا أن نلتقي لأسبوع. كان يداعب رقبتي، ويبحث عن فمي. كانت رغبتي هي أن أظلّ متعلّقة بكتفه حتّى اللّيل، ربّما لأشكوه قليلاً ما لا نحبّه سوياً. كانت السّنة الجامعيّة قد انتهت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزء الثاني

الفصل الأول

كان المنزل طويلاً ورمادياً. مرج يمتد إلى غاية الـ«يون» Yonne، ساكناً في قصبه وتياراته الفزبدة، الـ«يون» أخضر وثقيل ومأهولة سماؤه بالسنديان وبطيور الخطاف. مع أني أحببت سنديانة بينها، استلقيت بجانبها، جئت أتمدد، قدمي في مواجهة جذعها، رأسي الضالّ محشور في أغصانها التي أراها ترقص فوقي مع الريح.

تفوح من الأرض رائحة العشب الحارّ، منحني ذلك لذّة طويلة، ضاعفها إحساس بالعجز. أعرف هذا المنظر في الصيف تحت المطر. أعرفه قبل باريس، قبل الشوارع والـ«سين» والناس: لا يتغيّر.

أجريتُ امتحاناتي بمعجزة، كنتُ أقرأ، كنتُ أصعد على مهل حاملة وجباتي إلى البيت. فقدت أمّي ابناً منذ خمسة عشر عاماً، في ظروف مأساويّة، سرعان ما اكتسبتُ الوهن العصبيّ الذي أصبح بمرور الوقت البيت في حدّ ذاته. بين تلك الجدران، الحزن يتلوّنُ بمسحة قداسة. يمشي أبي على رؤوس أصابعه حاملاً لأمّي وشاحها.

كتب لي برتران. كانت رسالة غريبة، مُضطربة، حافلة بالتلميح إلى اللّيلة الأخيرة التي قضيناها معاً إثر مساء الـ«كنتوكي»، قال إنّه قلّل من احترامي طيلة تلك اللّيلة. لم ألحظ أنّه قلّل من احترامي أكثر من العادة، وبما أنّ علاقتنا بهذا الخصوص عاديّة جداً ومرضية فقد كان عليّ أن أبحث طويلاً عمّا لمّح إليه. عبثاً. أخيراً فهمتُ أنّه أراد إقحام ضلوعٍ ثقيل بيننا، من قبيل الجنس. كان يبحث عن شيء يربط بيننا، كان يحاول التعلّق في الأغصان، وكي يفعل، اختارها دانية، قريبة من الأرض. بدءاً عاتبته. إقدامه على تعقيد الأمر السّعيد الوحيد بيننا، إجمالاً، الأكثر نقاءً، لكنّي لم أكن أعرف أنّنا أحياناً نسعى إلى القيام بأيّ شيء حتّى الأسوأ، بَدَلَ المنتظر، الرّديء. وبالنّسبة إليه، المنتظر، الرّديء، هو أن يفقد «نحن» منذ شهر، وهذا يؤلمني أكثر.

لا أخبار عنه خلال هذا الشّهر: فقط بطاقة ظريفة من فرنسواز موقّعة باسمها. رحتُ أردّد بيني وبين نفسي بنوع من الاعتزاز بأنّي لا أحبّه: دليلي على ذلك هو أنّي لا أتألّم لغيابه. ولأتأكّد أكثر، لا أعتقد أنّه كان من الضّروري الشّعور بالإهانة لأنّي لا أحبّه ولستُ منتصرة كما كنتُ دائماً. أصلاً كلّ هذه الرّقة تزعجني. أنا أسيطر على نفسي جيّداً.

ثمّ إنّي أحبّ هذا البيت الذي يُفترَض أنّه يسبّب لي الملل. أحسّ بالملل طبعاً، لكنّه ملل ممتع

وليس داعياً للخجل كما هو الشأن مع أناس باريس. كنتُ لطيفة ومهتمة بالجميع، كنتُ أجد متعة في ذلك. التسكّع من بناية إلى أخرى، من حقل إلى آخر، من يوم إلى آخر، دون قدرة على القيام بغير ذلك، يا لها من رائحة! اكتساب اسمرار شفيف في الوجه وعلى جسمي من شدّة الجمود في مكان واحد، الانتظار، دون ترقّب أن تنتهي العطلة. القراءة. كانت العطلة مهفة، شاقّة، صفراء، ورتيبة.

أخيراً وصلت رسالة لوك. قال لي إنه سيكون في «أڤينيون» يوم 22 سبتمبر. سينتظر دائماً قدومي أو رسالة مني. قرّرتُ فجأة الذّهاب إليه بنفسي، وبدا لي الشّهر المنقضي جلّة ببساطة، لكنه كان فعلاً لوك، وهذه الـــ «أڤينيون» الحمقاء غير المُتوقّعة، هذا الغياب الكلّي للجدوى. رميتُ بنفسي في الأكاذيب، كتبت لكاترين بأن ترسل لي دعوة وهميّة. في الوقت نفسه كتبت لي رسالة عبرتُ فيها عن حيرتها، لأنّ برتران كان في الشاحل مع المجموعة، وعمّن سألتقيه؟ عدم ثقتي بها يجعلنا حزينة؛ لا تجد تفسيراً واحداً لذلك. وجهت إليها كلمة شكر، وقلت لها لو أردت أن تسبّبي الألم لبرتران فأخبريه برسالتي... الأمر الذي، ستفعله لا محالة، بدافع صداقة، طبعاً.

يوم 21 سبتمبر، مُزوّدة بأغراض خفيفة، نزلتُ بأڤينيون التي، لحسن الحظّ، توجد على ضفاف الـــ «كوت دازير» Cote d'Azur رافقني والداي إلى المحطّة. فارقتهما بدموع في مُقلَتَيّ، لا أدري لماذا. أحسستُ بأنّي أفارق طفولتي للمرّة الأولى والأمان العائليّ.

كرهتُ أڤينيون مُسبَقاً.

إثر صمت لوك، ورسالته الشّاردة، كوّنتُ حوله صورة منفصلة وقاسية، ووصلت إلى أڤينيون في حالة من التأهّب، مزاج ذهني لا يناسب لقاءً يُفترَضُ أنّه لقاء حبّ. لم أرحل مع لوك لأنّه يحبّني ولا لأنّي أحبّه.

ذهبتُ معه لأنّنا نتحدّث اللّغة ذاتها، ولأنّنا مُعجَبان ببعضنا بعضاً. حين أفكّر تبدو لي هذه الأسباب واهية والسّفرة مرعبة. لكنّ لوك، فاجأني مرّة أخرى. كان على رصيف المحطّة، بسحنة قلقة تحوّلت إلى فرح لمّا رآني. نزلت، ضمّني بين ذراعيه وقبّلني قبلة خفيفة.

«أنتِ رائعة، أنا سعيد لأنّك أتيتِ.

- أنت أيضاً، قلت، ملفحة لسحنته.

اسمَرّ قليلاً، صار نحيفاً، أكثر وسامة ممّا كان عليه في باريس.

«ما من سبب يجعلنا نظلّ في أڤينيون، تعلمين، سنذهب لرؤية البحر، فنحن هنا لأجل هذا، أساساً. ثمّ بعد ذلك سنقرّر».

كانت سيارته رابضة أمام المحطّة. ألقى حقيبتي في الخلف وانطلقنا. أحسست بأنّي فظّة ومحبطة، على النقيض، في آن واحد. لا أذكر إن كان مغوياً أكثر أو ما إذا كان مرحاً أكثر. كانت الطريق جميلة، محفوفة بالخضار. كان لوك يدخّن، ونزّلنا سقف السيارة.

قلت: «هأنذا، أنا هنا، الآن». لكن هذا لم يغيّر فِيّ شيئاً. شيئاً مطلقاً. يُفترض أن أكون تحت سنديانتي الآن ومعي كتاب. غيابي عن الأحداث انتهى بإسعادي. استدرتُ إليه وطلبتُ منه سيجارة. ابتسم:

«أنتِ الآن أفضل؟»

بدأتُ أضحك.

«نعم، أفضل، كنتُ فقط أتساءل عمّا أفعله معك، هذا كلّ شيء.

- أنتِ لا تفعلين شيئاً، أنت تتنزّهين، تدخّنين، وتتساءلين عمّا إذا كنتِ ستشعرين بالملل. ألا ترغبين في أن أقبّلك؟

أوقف السيّارة، أخذني من كَتِفَيّ وقبّلني. كانت تلك وسيلة رائعة بيننا للتعارف. ضحكت قليلاً لصق فمه ثمّ انطلقنا من جديد. أمسك يدي. يعرفني جيّداً. كنتُ طيلة شهرين أعيش مع نصف غرباء، جامدة في حداد لستُ أشاركهم إيّاه، وبدا لي، برفق، أنّ الحياة تُستأنف.

البحر شيء مُذهل؛ تأسّفت لأنّ فرنسواز لم تكن معنا لأقول لها حقّاً إنّ البحر أزرق بصخور حمراء ورمل أصفر، وأنّ هذا مُوَفّق للغاية. خشيتُ قليلاً أن يُريَني إيّاه لوك منتصراً، مراقباً ردّة فعلي، الأمر الذي كان سيضطرّني إلى التّعليق بأوصاف وإيماءات دهشة، لكنّه اكتفى بالإشارة إليه بإصبعه حين وصلنا إلى «سان رافاييل».

«هذا هو البحر».

تنزّهنا أيضاً ببطء في المساء، أخذ البحرُ يميل إلى الشّحوب بالقرب منّا إلى أن أصبح رماديّاً. أوقف لوك السيّارة في مُفترَقِ «كان»(10)Canne قبالة نزل فخم، باحته أرعبتني. أعرف أنّه علّيّ، قبل أن أكون سعيدة، أن أنسى هذا الدّيكور، هؤلاء الخدم، أن أحوّلهم إلى كائنات مألوفة، لا تنظر إليّ بتوجّس ودون خطر.

تحدث لوك مع رجل متعالٍ خلف الكونتوار. وددتُ لو كنتُ في مكان آخر. أحسّ بذلك، وضع يده على كتفي ونحن نتجاوز الضالة، كان يُرشِدني.

كانت غرفة هائلة، بيضاء تقريباً، ببابَي شرفة مفتوحين على البحر. كانت هناك ضجّة حفالين، أمتعة، نوافذ مفتوحة، خزانات ملابس. كنتُ في الوسط، يداي متدلّيتان، مُغتاظة لعدم قدرتي على القيام بشيء.

«ها نحن»، قال لوك.

ألقى نظرة رضاً حول الغرفة، مال على الشُرفة.

«تعالَي وانظري».

استندتُ على مرفقَيّ بجانبه، على مسافة محترمة. لم يسبق لي أن رغبتُ في النظر عبر النافذة، ولا أن أكون رأساً لرأس مع رجل بالكاد أعرفه. ألقى عليّ نظرة سريعة.

Telegram:@mbooks90

«لقد توحشتِ ثانية. خذي حمّاماً وتعالَي نحتسي كأساً، في مثل حالتك لا أرى سوى الرّفاهة والنّبيذ ليزيل عنك التّجاعيد».

كان مُحقّاً. بعد أن غيّرتُ ملابسي، اتّكأتُ قريباً منه وكأسي بين يَدَيّ، أثنيتُ ألف مرّة على الحمّام والبحر. قال إنّي كنتُ في منتهى الجمال. أجبتُه، أنتَ أيضاً. وتأمّلنا أشجار النّخيل والحشود ملء الرّضا. ثمّ راح يغيّر ملابسه تاركاً بين يديّ كأس وسكي أخرى، وخطوتُ عارية القدمين على السجّاد وأنا أترنّم. مرّ العشاء بشكل رائع. تحدّثنا عن فرنسواز وبرتران بكثير من الاحترام والحنان. تمنّيتُ ألّا أصادف برتران، لكنّ لوك قال إنّنا حتما سنصادف من سينقل بكثير من السّعادة لقاءنا هذا، إليه وإلى فرنسواز، وأنّه من الحكمة الانشغال بذلك لدى عودتنا. غمرني بالوداعة لأنّه يُغامر لأجلي. قلتُ له ذلك وأنا أتثاءب فقد كنتُ ميتة من النّعاس. قلتُ له أيضاً إنّ طريقته في التّعامل مع الأشياء تعجبني:

«هذا رائع. قرّرتَ أمراً فقُمتَ به، تتقبّل العواقب دون خوف.

- ممّ تريدين أن أخاف؟ قال بحزن غريب. لن يقتلني برتران وفرنسواز لن تهجرني. لن تحبّيني.

- ربّما قلني أنا برتران، قلتُ باستياء.

- هو لطيف للغاية. كلّ النّاس لطفاء.

- الأشرار مُملّون أكثر. أنت من قال لي ذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- معك حق. لقد تأخر الوقت، تعالَي إلى النوم.

قال ذلك بشكل طبيعي، لم تكن حواراتنا غرامية لكن «تعالَي إلى النوم» هذه، بدت لي فروسية. في الحقيقة كنتُ خائفة، خائفة جداً من اللّيلة التي أقبِلُ عليها.

في الحمّام لبستُ بيجامتي بيدين مرتعشتين. كانت بيجامة مدرسية، لكني لا أملك غيرها. حين عدتُ كان لوك قد استلقى. كان يدخّن مشيحاً بوجهه ناحية النّافذة. اندسستُ بجواره. مدّ نحوي يداً هادئة، أمسك بيدي. كنتُ أرتعش.

«انزعي هذه البيجامة أيّتها الغبيّة الصّغيرة ستبلّلينه. تشعرين بالبرد في ليلة كهذه؟ أنتِ مريضة؟»

أخذني بين ذراعيه، نزع بيجامتي بحركات وئيدة، رمى بها على الأرض مكوّراً. لفتتُ انتباهه إلى أنّها ستبرد. ضحك بصوت منخفض. كلّ حركاته أصبحت وديعة. قبّل كتِفَيّ برفق، فيما استمرّ فمه في الكلام:

«أشمّ فيكِ رائحة الغشب الحارّ. هل أحببتِ الغرفة؟ وإلّا انتقلنا إلى مكان آخر. هي جيّدة إلى حدّ ما...».

أجبتُ: «بلى، بلى»، بصوت مختنق. كانت رغبتي كبيرة في أن أنتقل إلى اليوم الموالي صباحاً. حين أبعد يده قليلاً ووضعها فوق خاصرتي ارتبكت. داعبني وقبّلتُ رقبته، صدرَه، كلّ ما أمكنني لمسه من ذلك الخيال الأسود في سماء باب الشّرفة.

أخيراً دسّ فخذيه بين فخذَيّ وتنهّدنا سويّاً. ثمّ لم أعد أراه، ولا أرى سماء «كان»، كنتُ أموت، كنتُ سأموت، لم أفت، كنتُ أفقد الوعي. ما بقي عبثٌ: كيف لم أعرف ذلك دائماً؟ حين انفصلنا فتح لوك عينيه وابتسم لي. سرعان ما نمتُ، رأسي فوق ذراعيه.

كثيراً ما قيل لي إنّه من الصّعب العيش مع أحد ما. أؤيّد ذلك لكن دون قدرة على التّفسير خلال إقامتي القصيرة مع لوك. أيّد لأنّي لا أستطيع أن أكون مرتاحة معه. لديّ دائماً هاجس بأنّه سيَمَلّ، إنّما، لا يمكنني ألّا ألاحظ ذلك، عادة، أخشى الملل مع الآخرين أكثر من خشيتي بأن يصيبهم الملل معي. هذا القلب يقلقني، لكن أمِنَ الممكن أن أجد العيش مع لوك صعباً، هو الذي يتكلّم كثيراً، لا يسأل شيئاً (خصوصاً: «فيمَ تفكّرين؟»)، يبدي على وتيرة واحدة سروراً من وجودي هنا، ولا يعبّر أبداً بالطّريقة التي يجب أن يعبّر بها عن اللّامبالاة أو الشّغف؟

لدينا الخطوات نفسها، العادات نفسها، إيقاع الحياة نفسه. مُعجَبان ببعضنا بعضاً وكلّ شيء

يسير على ما يرام. ولا أقدر أن أتأسف لأنه لا يقوم بالجهد العظيم الذي ينبغي أن يبدر من شخص لكي يُحبّ شخصاً آخر، لكي يعرفه ويُكشر وحدته.

كنا أصدقاء، حبيبين. كنا نسبح سوياً في هذا المتوسط الأزرق جداً؛ نتناول الغداء دون أن نقول أشياء كثيرة، معتوهَين لشدّة التعرّض للشمس ونعود إلى الفندق. أحياناً، بين ذراعيه، في تلك الحميمية التي تعقب الحبّ، أرغب في أن أقول له: «لوك، أحِبّني، لنحاول، عنا نحاول». غير أني لا أقول له ذلك. أكتفي بتقبيل جبينه، عينيه، شفتيه، كلّ تفاصيل هذا الوجه الجديد، هذا الوجه الحساس الذي تكتشفه الشّفتان قبل العينين. لم أحبّ وجهاً من قبل كما أحببتُ وجهه. بل كنتُ أحبّ خدّيه، رغم أنّ الخدود هي جزء بلا لحم، نوعاً ما «سمكة» الوجه. الآن فهمتُ بروست وهو يتحدّث عن خدود «ألبرتين». حين أضغط بوجهي على خدّيْ لوك الطريّين الخشنين بسبب اللّحية التي بدأت بالبروز يجعلني أيضاً أكتشف جسمي، فحدّثاً إيّاي عنه باهتمام، بلا خجل، كما لو أنّه يتحدّث عن تحفة نفيسة.

دائماً ليس الاشتهاء ما يطبع وتيرة علاقتنا، بل شيئاً آخر، من قبيل الضُلوع القاسي في التّعب من كوميديا الحياة، الإنهاك من الكلمات، التّعب باختصار.

بعد العشاء، نرتاد الحانة نفسها، إنّها جنائزيّة قليلاً، خلف شارع «أونتيب» **Antibes**. كانت هناك فرقة طلب منها لوك لدى وصولنا ذلك الـــ «وحيد وعذب» ***Lone and Sweet*** الذي كنتُ حدّثته عنه. التفت إليّ بسحنة ظفر.

«أهذا ما تريدين؟

- نعم، لطف منك أنك فكّرتَ في ذلك.

- هل يذكّرك برتران؟

أجبته بنعم، قليلاً، بأنّه ظلّ فترة طويلة في أجهزة الأسطوانات.

اتّخذ ملامح الاعتراض.

«هذا مُملّ. لكن سنعثر على آخر.

- لماذا؟

- حين نكون في علاقة، يجب أن نبحث عن هواء كهذا، وعطر، وعلامات، لأجل المستقبل.

لابدّ أني اتّخذتُ سحنة غريبة، لأنّه راح يضحك.

«في سنك، لا يتمّ التفكير في المستقبل. أنا أهيئ لنفسي شيخوخة رائقة، فيها الأسطوانات حاضرة.

- لديك الكثير منها؟

- لا.

- هذا مؤسف، قلت بغضب. في سنك أعتقد أنها ستكون لديّ مجموعة بأسرها.

أخذ يدي بحذر.

- أنتِ مجروحة؟

- لا قلتُ بتعب. لكنه من المضحك القول إنّه خلال سنة أو اثنتين، أسبوع بأكمله من عمرك، أسبوع حي مع رجل، لن يكون سوى أسطوانة، خصوصاً حين يكون السيّد على دراية بذلك ويؤكّده.

أحسست بالدّمع في مقلتَي. إنّها الطّريقة الوحيدة التي قال لي بها: «أنتِ مجروحة؟» عندما يحدّثني أحدهم بنبرة معينة فإنّ ذلك يوقظ في داخلي رغبة في التألّم.

- ما عدا ذلك، لستُ مجروحة، قلتُ بعصبيّة.

- تعالي، قال لوك، لنرقص.

أخذني من تحت ذراعي وبدأنا نرقص على ألحان برتران التي لا تشبه في شيء التّسجيل الجيد لجهاز الأسطوانات. ونحن نرقص ضمّني لوك إليه فجأة، بعنف، بما يُسمّى بلا شك الرقّة اليائسة وتمسّكتُ به. ثمّ حزرني وتحدّثنا عن شيء آخر. بعدها وجدنا أنفسنا وسط لحن فرض نفسه لأنّه اللّحن الأكثر انتشاراً.

فيما عدا هذا الاشتباك، كنتُ متماسكة، مُغتبطة، وبدت لي مغامراتنا موفّقة. ثمّ إنّي معجبة به، بثباته، طريقته الرّجوليّة التي كان يولي بها الأشياء ما تستحقّه تماماً، وزنها، دون سخرية أو مجاملة. كانت فقط لديّ الرّغبة في أن أقول له بانزعاج: «لكن، لِمَ لا تحبّني؟ سيريحني ذلك كثيراً؟ لِمَ لا تجعل بيننا حاجز شغف شفّاف ورقيق، جدّ مؤثّر أحياناً، لكنه لائق؟»، لكن لا، كنّا من الفصيلة نفسها، حليفَين، وشريكين. لن يسعني أن أكون غرضاً، ولا أن يكون هو موضوعاً، ليست لديه الإمكانيّة، ولا القوّة ولا الرّغبة.

ما يُفترَض أنّه أسبوع، انتهى. لم يتحدّث لوك عن الرّحيل. صرنا برونزيّين، بسحنة مُخزّفة

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

قليلاً بسبب الليالي التي قضيناها في الحانة نتحدث، نشرب، ننتظر الفجر الفجر الأبيض فوق بحر لا إنساني، جميع القوارب هامدة، الحشود، النوارس الأنيقة نائمة تحت أسقف النزل.

غادرنا إذاً، حيّينا الشابّ النعسان ذاته، وأخذني لوك بين ذراعيه، دعاني إلى الحبّ بنصف دوار إرهاق. استيقظنا عن منتصف النهار لأجل الحمّام.

ذلك الصباح الذي يُفترَضُ أنّه الأخير، ظننتُ أنّه يحبّني، وهو يذرع الحجرة، اتّخذ سحنة تردّد شوّقتني.

«ماذا قلتِ لعائلتِكِ؟ متى تعودين؟

- قلتُ لهم: «بعد أسبوع».

- إذا لا عملَكِ ربّما بقينا أسبوعاً إضافياً؟

- نعم...

فكّرتُ في أنّه لم يخطر لي أنّ عليّ العودة، تجري حياتي في هذا النُّزل الذي أصبح مِضيافاً، مناسباً، كمركب كبير.

مع لوك كل لياليّ تتحول إلى ليالٍ بيضاء. نحن نمضي برفق نحو الشتاء، نحو الموت، ستتحدّثين عن المؤقّت.

- اعتقدتُ أنّ فرنسواز تنتظرك؟

- سأعالج ذلك، قال. ليست لديّ الرّغبة في مغادرة «كان». لا «كان» ولا أنتِ.

- أنا أيضاً، أجبتُ بالصوت نفسه الهادئ والفحتشِم.

نفسُ الصوت. لحظة فكّرت في أنّه يحبّني وأنّه لا يريد أن يعترف بذلك. اهتزّ قلبي بهذا الخاطر. ثمّ تذكّرتُ بأنّها مجرّد كلمات، وأنّه فعلاً يحبّني وهذا كافٍ. نحن فقط نمنح بعضنا أسبوعاً سعيداً إضافياً. إثره يجب أن أغادره. أن أرحل عنه... لماذا؟، لأجل من، كي أفعل ماذا؟ لأجد نفسي في ذلك الضّجر المتقلّب، تلك الوحدة الفستشرية؟ على الأقلّ كان حين ينظر إليّ فإنّه هو من أرى؛ حين يُحدّثني، إنّه هو من أودّ أن أفهم. كان هو من يهمّني أمرُه، هو، الذي أريده أن يكون سعيداً. لوك، لوك، حبيبي.

«فكرة جيّدة، أضفت. في الواقع، لم أفكّر بعدُ في الرّحيل.

CamScanner ممسوحة ضوئيا بـ

- أنتِ لا تفكّرين بشيء، قال ضاحكاً.

- ليس عندما أكون معك.

- لماذا؟ تشعرين بأنك شابّة وغير مسؤولة؟

نذت عنه ابتسامة وبسرعة سحب – حالما راودتني الفكرة – مسألة «الفتاة الصّغيرة والحارس السّاحر» من علاقتنا.

لحسن الحظّ أن شعرتُ بنفسي راشدة، راشدة وفاقدة للاهتمام.

- لا، قلت، أحسّ بأني مسؤولة تماماً. لكن عن ماذا؟ عن حياتي؟ هي مرنة ورخوة كفاية. لست تعيسة. أنا فخورة. لستُ حتّى سعيدة. أنا لا شيء؛ إلّا حين أكون معك.

- هذا جيّد، تابع. أنا أيضاً أكون في أفضل أحوالي معكِ أنتِ.

- لنخرخر إذاً.

ضحك.

«تصيرين مثل قطّ غاضب ما إن يقترب أحدهم من جرعة العبث واليأس اليوميّة خاصّتِك. ليست لديّ النيّة في جعلك تخرخرين كما تقولين! ولا أن تكوني سعيدة معي. سيصيبني ذلك بالملل.

- لماذا؟

- أشعر بأنّي وحيد. إنّها النّقطة الوحيدة التي تخيفني فيها فرنسواز: حين تكون بجانبي ولا تقول شيئاً وتكون راضية هكذا. من ناحية أخرى، إنّها مدعاة للاعتزاز أمام الرّجولة والمجتمع أن يجعل المرء امرأة سعيدة، حتّى لو تساءلنا لماذا؟

- في العمق، هذا ممتاز، قلت بملامح مُعيّنة. ثقّة فرنسواز التي ستجعلها سعيدة وأنا من ستجعلُ تعيسة بعودتِك.

لم أنطبق بهذه الجملة وندمتُ على ذلك. استدار ناحيتي.

«أنتِ حزينة؟

- لا، قلت وأنا أبتسم: تائهة قليلاً. أحتاج إلى شخص يهتمّ بي ولا أحد أكفأ منك للقيام بذلك.

- لم تحدّثيني عن هذا، قال بغضب.

ثم أعاد النظر.

«بلى، ستحدثينني عن هذا، ستحدثينني عن كل شيء. إذا كان هذا الشخص سيئاً فسأضربه. عدا ذلك سأقول لك أشياء جيدة. باختصار، أب حقيقي... أخذ يدي، أدارها، قبل راحتي بحنان، طويلاً. وضعت يدي الحرة حول رقبته المنحنية. كان شاباً جداً، ضعيفاً جداً، طيباً جداً، هذا الرجل الذي عرض عليّ خوض مغامرة دون أفق ودون عاطفة. كان نزيهاً.

«نحن أناس نزهاء، قلت بنبرة مغرورة.

- أجل، قال ضاحكاً. لا تدخني سيجارتك هكذا، هذا ليس نزيهاً.

لبست ثوب نوم بالخرز.

«هل أنا امرأة نزيهة؟ ماذا أصنع في هذا الفندق الكئيب مع زوج امرأة أخرى؟ في زيّ غانية؟ ألست واحدة من فتيات «سان جيرمان دي پري» الزائفات اللاتي يُفسدن الأمر وهنّ يفكرن في أشياء أخرى؟

- بلى، قال منهكاً. وأنا، أنا الزوج، النموذجي حتى الآن، الثائه في الاتجاهات، ذكر الحمام المسكين... تعالَي...

- لا، لا، لأني دائماً أرفُضك، سأجعلك تمشي. أنا من أشعل نار الفجور فيك، أرفُض أن آتيك بنفسي، هذا كلُ شيء.

تهاوى على الفراش، رأسه بين يديه. جلست بجواره، بسحنة قاسية. حين رفع رأسه كنت أحدجه بنظرة ثابتة.

- أنا مضاصة دماء.

- وأنا؟

- بقايا بشرية بائسة. ما يجمعُ رجلاً... لوك! أسبوعاً آخر!

ارتميت بجانبه، مزجت شعري بشعره؛ كان حارقاً وبارداً لصق خدي، كان يفوح منه البحر والملح.

كنت وحدي ليس بغير نوع من الرضا وأنا مستلقية على مقعد طويل قبالة البحر. وحدي مع العجائز الإنجليزيات. كانت الساعة الحادية عشرة ولوك توجه نحو «نيس» حيث كان عليه أن

يقوم بشراءات مُعقّدة.

أحبّ «نيس»، وبشكل أقلّ الجزء الحقير منها، بين المحطّة وبين متنزّه الإنجليز. لكنّي رفضتُ مرافقته لأنّ رغبة مفاجئة في البقاء وحيدة انتابتني.

كنتُ وحدي، أتثاءب، كنتُ متعبة من قلّة النوم، كانت حالة لذيذة.

يمكنني أن أشعل سيجارتي دون أن ترتعش أصابعي قليلاً. شمس سبتمبر ليست حارّة، كانت تداعب وجنتي. كنتُ لمرّة واحدة متصالحة مع نفسي. «لسنا أكثر من متغيّبين»، يقول لوك، بالفعل كان صحيحاً أنّي أنتمي إلى فئة من النّاس لا يتعايشون مع أنفسهم عندما يقتلون الجانب الحيويّ فيهم، أناس متطلبون وميتون من الملل؛ ذاك الجانب الذي يطرح السّؤال: «ماذا صنعت بحياتك؛ ماذا تتمنّى أن تحقّق؟»

سؤال لا يمكنني الإجابة عنه إلّا بـــ: «لا شيء».

مرّ من أمامي شابّ وسيم جدّاً، تفحّصتُه بلا مبالاة بدت لي ساحرة. عادة، الوسامة، في سنّ مُعيّن تعطيني انطباعاً مزعجاً. ذاك الشّابّ بدا لي مُثيراً للإعجاب وبلا حقيقة. يلغي لوك بقيّة الرّجال. في المقابل لا ألغي في نظره بقيّة النّساء. كان ينظر إليهنّ بإعجاب دون تعليق.

فجأة لم أعد أرى البحر إلّا عبر الضّباب. أحسستُ بالاختناق. وضعتُ يدي على جبهتي، كان غارقة في العرق. كان شعري مبلّلاً. سالت قطرة على طول ظهري. في النّهاية أليس هو هذا: ضباب أزرق، سقوط خفيف. لو كان عليّ أن أموت لا أعتقد أنّي كنتُ سأقاوم.

فهمتُ الجملة التي مرّت بخاطري وأيقظت وعيي وكانت ستتسلّل على أصابع الأقدام: «ما كنتُ لأقاوم». مع أنّي أحبّ أشياء كثيرة: باريس، الرّوائح، الكتب، الحبّ وحياتي الحاليّة مع لوك، لديّ حدس بأنّي لن أكون بخير مع شخص غير لوك، بأنّه خُلِقَ لي للأبد وأنّه بلا شكّ ثمّة جرائم علاقات. مصيري هو أن يهجرني لوك، أن أبدأ مع غيره ما عشتُه، بالطّبع. مع غيره لن أكون مثلما أنا عليه: وحيدة قليلاً، هادئة كفاية، ومتردّدة في أعماقي بعض الشّيء. إلّا أنّه سيعود إلى زوجته، تاركاً إيّاي في غرفتي بباريس، تاركاً إيّاي فريسة لساعات ما بعد الظّهيرة اللّانهائية، نوبات اليأس والعلاقات ذات الخاتمة الرّديئة ورحتُ أبكي بصمت إشفاقاً على نفسي.

لبثتُ أمسح دموعي ثلاث دقائق. كانت هناك عجوز إنجليزيّة ترمقني، دون تعاطف، باهتمام جعلني أحمرّ. ثمّ صرتُ أنظر إليها بانتباه. لوهلة أخذني التّقدير ناحيتها. كان إنساناً. إنساناً آخر. كانت تنظر إليّ وأحدّق فيها، تحت الشّمس كنّا كأنّنا منبهرتين بنوع من الاعتراف: كائنان

بشريّان لا يتكلّمان اللّغة نفسها ويحدّقان في بعضهما كما لو كانا مفاجأتين. ثمّ نهضت وغادرت وهي تعرج متّكئة على عكّازها. السّعادة أمرٌ مُسطّح؛ دون علامات. من هذه الفترة في «كان» لن تبقى لي ذكرى محدّدة، سوى هذه اللّحظات الحزينة، ضحكات لوك في الغرفة، اللّيل، الرّائحة الفستجوية الرّتيبة للميموزا الصيفيّة. السّعادة بالنّسبة إلى أناس مثلي، هي ربّما نوع من الغياب، غياب الملل، غيابا مُطمئناً. في الوقت الحاضر صرتُ أعرف هذا الغياب، مثلما أحياناً، عندما تلتقي عيوننا أنا ولوك، ينتابني إحساس بأنّ كلّ شيء بات أخيراً على ما يُرام. إنّه يتحمّل العالم بدلاً عنّي. كان ينظر إليّ مبتسماً. أعرف لمن هو يبتسم وأرغب بدوري في الابتسام.

أذكر لحظة ثقيلة، ذات صباح. كان لوك ممدّداً على الرّمل. قفزتُ من أعلى قارب أو ما شابه. ثمّ صعدتُ إلى آخر درجة في منصّة القفز. رأيت لوك والحشد على الرّمل، والبحر المجامل في انتظاري. كنتُ سأقفز، وأغوص فيه؛ كنتُ سأسقط من أعلى وسأكون وحدي، بشكل قاتل، خلال قفزتي. نظر إليّ لوك. قام بحركة هلع مُضحكة وتركتُ نفسي أسقط. البحر يرفرف ناحيتي؛ آذيتُ نفسي لدى ملامسة الماء. عدتُ إلى الشّاطئ وتهاويت بجانب لوك وأنا أرشّه؛ ثمّ أسندتُ رأسي على ظهره الجافّ وقبّل كتفي.

- أأنتِ مجنونة، أم ببساطة رياضيّة؟ قال لوك.

- مجنونة.

- هذا ما رجّحته بفخر. حين قلتُ لنفسي إنّك تقفزين من أعلى لتلحقي بي، كنتُ سعيداً بذلك.

- هل أنتَ سعيد؟ أنا سعيدة. ينبغي أن أكون كذلك على أيّ حال ما دمتُ أتساءل بهذا الشّأن. إنّها بداهة، أليس كذلك؟

كنتُ أتحدّث دون النّظر إليه لأنّه كان مُمدّداً على بطنه ولم تكن بادية لي منه سوى رقبته البرونزيّة الصّلبة.

- ساخرة!

- أنتُ أقلّ سخرية منّا بكثير. النّساء ساخرات كبيرات. لستُ سوى ولد صغير بيني وبين فرنسواز.

- مغرورة.

- أنت أكثر غروراً منّا. النّساء المغرورات هنّ فوراً غبيّات. الرّجال، ذاك يمنحهم مظهر رجولة مزعومة يظلّون يشتغلون عليه كي...

- قريباً تنتهي البداهات؟ حدّثيني عن الطقس. في العطلة هذا هو الأمر الفتاح الوحيد.

- الطقس جميل، قلت؛ الطقس جميل...

وأدرتُ ظهري ونمت.

حين استفقتُ كانت السماء مُغشاة، الشاطئ مقفر وأحسست بأنّي متعبة وفمي جاف. كان لوك جالساً بالقرب منّي على الرّمل، كان يرتدي ملابسه كاملة. كان يُدخّن متأملاً البحر. بقيتُ فترة أراقبه دون أن أنبهه إلى أنّي مستيقظة، مع فضول مجرّد للمرّة الأولى: «فيمَ يُفكّر هذا الرّجل يا ترى؟» فيمَ يُمكن أن يفكّر كائن بشريّ على شاطئ مقفر أمام البحر، بجوار إنسان ينام؟ لاحظتُ أنّه كان مسحوقاً بها الغياب الثلاثي، وحيداً إلى درجة أنّي مددتُ له يدي ولمستُ ذراعه. لم يتفاجأ. لا يتفاجأ أبداً. نادراً ما كان يندهش، لم يكن يتعجّب إلّا نادراً.

«استيقظت؟»، قال بكسل. وتثاءب. «إنّها الرّابعة».

- «الرّابعة!» وقفتُ. «نمتُ أربع ساعات؟»

- لا ترتاعي، قال لوك، ليس أمامنا ما نقوم به.

بدت لي جملته حزينة. كان ذلك صحيحاً، إذ لم يكن لدينا ما نفعله سويّاً، لا عمل، لا أصدقاء مشتركين.

«هل أنت نادم؟» سألت.

التفتَ إليّ مبتسماً.

«لا أحبّ غير هذا. البس سترتك، عزيزي، ستُصاب بالبرد. سنحتسي الشّاي في النّزل».

كان الممرّ حزيناً، بلا شمس، كان نخيلُه يميل قليلاً تحت تأثير ريح لا طاقة لها. كان النّزل نائماً. طلبنا الشّاي إلى الغرفة. أخذتُ حمّاماً ساخناً وعدتُ لأستلقي بجوار لوك الذي كان يقرأ في الفراش وهو ينفض رماد سيجارته من حين إلى آخر. أغلقنا النّوافذ بسبب كآبة السّماء، كانت الغرفة مُضاءة قليلاً وحارّة. كنتُ ممدّدة على ظهري، يداي معقودتان فوق بطني كميت أو كرجل سمين. أغمضتُ عينيّ. وحده صوت تقليب صفحات لوك ما كان يقطع اضطراب الأمواج من بعيد.

قلتُ لنفسي: «حسناً، أنا الآن بالقرب من لوك، أنا بجانبه، ليس عليّ سوى أن أمدّ يدي كي ألمسه. أعرف جسمه، صوته، طريقته في النّوم».

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

كان يقرأ، أحسست قليلاً بالملل، الأمر ليس بهذا السوء. بعد قليل سنتناول العشاء معاً، سنمارس الحبّ وخلال ثلاثة أيّام سنرحل. لن يكون الأمر كما هو عليه الآن، مؤكّد. لكن الآونة الحاضرة لنا؛ لا أدري إن كان هذا حباً أم تفاهماً؛ هذا لا يهمّ. كنّا وحيدَين كلّ من جهته؛ لا يدري أنّي أفكّر في شأننا؛ كان يقرأ لكنّنا كنّا معاً، وكنتُ، وأنا مُلتصقة به، أحظى بالجانب الحارّ واللّامبالاة. بعد ستّة أشهر حين سنفترق، لن تلوح ذكرى هذا الوقت الذي نمضيه الآن سويّاً، بل ذكريات أخرى لا إراديّة وحمقاء. رغم ذلك ربّما هذه الآونة ما سأظلّ أحبّ، تلك التي قبلتُ فيها الحياة كما بدت لي، هادئة ومُمَزّقة. مددتُ ذراعي، أمسكتُ بالـــ «العائلة الخاملة» التي كان لوك يعاتبني كثيراً لأنّي لم أقرأها، ورحتُ أضحك إلى حدّ حتّ لوك على الضّحك ومِلنا على الصّفحة نفسها، الوجنة لصق الوجنة، ثمّ فمٌ لصق فم. سقط الكتاب على الأرضيّة وسقطت فوقنا اللّذة وسقط اللّيلُ على الآخرين.

أخيراً جاء يوم الرّحيل. بِنِفاق يُخلّف الخوف، خوفاً عليه من أن أضعف. خوفاً عليّ وأنا أشعر بالضّعف من أن أنهار، لم نُلمّح في اللّيلة السّابقة إلى الرّحيل. فقط خلال اللّيل استيقظت عديد المرّات فريسة نوع من الاضطراب، وبحثتُ عن لوك بيدي، لأتأكّد من وجود النّوم بيننا. وفي كلّ مرّة كأنّه كان متأهّباً بسبب خوفه، كأنّ نومه كان أخفّ من أيّ وزن، كان يأخذني بين ذراعيه، يمسك برقبتي بين يديه، يهمس: «هنا، هنا»، بصوت غريب، كما ليُهدّئ من روع حيوان. كانت ليلة مُشوّشة وحافلة بالهمس، مرهقة بعطر الميموزا الذي سنتركه خلفنا، بنصف النّوم والفتور. ثمّ جاء الصّباح، الفطور، وجهّز لوك حقائبه، جهّزتُ أغراضي، في الوقت نفسه، وأنا أحدّثه عن الطّريق، عن المطاعم في الطّريق، إلخ. كنتُ متضايقة قليلاً من نبرتي الهادئة والشّجاعة الزّائفة، لأنّي لم أكن أشعر بالشّجاعة ولا أجد سبباً يجعل من واجبي أن أكون كذلك. لا أحسّ بشيء مُعيّن: حائرة بشكل غامض، ربّما. مرّة أخرى سنلعب نصف كوميديا، لكنّي رأيتُ أنّه من الأفضل عدم الاستسلام إليها، إذ، في النّهاية، هناك احتمال أن أتألّم قبل فراقه. بل استخدمتُ التصرّف بالإيماءات، وملامح الحياء.

«نحن جاهزان، قال أخيراً. سأرنّ لهم لأجل الأمتعة».

انتابتني صحوة وعي.

«لنطِلْ قليلاً من هذه الشّرفة، مرّة أخيرة»، قلت بصوت ميلودرامي.

رمقني بقلق، ثمّ راح يضحك من طريقتي في التّعبير.

«قاسية صغيرة، ساخرة، تعجبينني».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخذني بين ذراعيه وسط الغرفة؛ وراح يهزّني برفق.

- تعلمين أنّ من النادر القول لأحدهم: «أنتِ تعجبني» بعد خمسة عشر يوماً من المساكنة.

- ليست مساكنة، احتججتُ ضاحكة، إنّه شهر عسل.

- سببٌ إضافيّ!، قال، وهو يحرّرني. في تلك اللّحظة انتابني شعور بأنّه يهجرني، والرّغبة الجامحة في الإمساك به من ثنايا سترته. كان ذلك سيّئاً للغاية، كان هروباً.

جرت العودة بشكل جيّد. قُدتُ قليلاً. قال لوك إنّنا سنصل إلى باريس في اللّيل، بأنّه سيهاتفني في اليوم الموالي وأنّنا سنتناول العشاء مع فرنسواز قريباً، لأنّها ستكون قد عادت بدورها من الرّيف حيث أمضت الخمسة عشر يوماً خاصّتها مع أمّها. بدا لي كلّ ذلك مثيراً للقلق، لكنّ لوك نبّهني إلى ألّا ألمّح إلى رحلتنا: سيسوّي الأمور معها. تكهّنتُ بأنّي سأقضي الخريف حتماً بينهما هما الاثنين، محاولة إيجاد المجال كي أقبّل لوك على فمه وأنام معه. لم يخطر لي أبداً احتمال أن يهجر فرنسواز، أوّلاً لأنّه قال لي ذلك، ثمّ لأنّه من المستحيل إخضاع فرنسواز إلى ذلك. لو أنّه عرض عليّ ذلك لما كنتُ وافقت في تلك الفترة.

قال لي إنّ لَدَيّ أعمالاً كثيرة متراكمة وأنّه لا يهتمّ لأمرها كثيراً. أمّا بالنّسبة إليّ فقد كانت سنة دراسة أخرى، ضرورة في التعمّق بأشياء سبّبت لي السّأم في السّنة الماضية. إحباط مُشترَك وكان لَدَينا الشّعور نفسه بالملل وبالتّالي الحاجة نفسها إلى التعلّق بالآخر.

الآخر الشّبيه.

وصلنا إلى باريس في وقتٍ متأخّر من اللّيل. عند باب إيطاليا، لاحظتُ لدى لوك قسمات التّعب وأحسستُ بأنّنا قد شحبنا من مغامرتنا الصّغيرة، أنّنا حقّاً راشدون، متحضّرون، عاقلون، وشعرتُ فجأة، بنوع من الشّعار بأنّي أهنتُ بشكل سافر.

الجزء الثالث

الفصل الأوّل

لم أكن أبداً لأجد باريس ثانية؛ اكتشفتُها مرّة وإلى الأبد.

أذهلني سحرها والمتعة التي وجدتُها وأنا أتجوّل في شوارعها، وأنا ما زلت شاردة بعدُ بسبب الصّيف. حاد بي ذلك عن انطباع العبث الذي خلّفه لَدَيَّ غياب لوك. أبحث عنه بعينَيّ، بيدَيّ أحياناً، في اللّيل، وفي كلّ مرّة يبدو لي فيها غيابه غريباً وأحمق. اتّخذتْ تلك الأيّام الخمسة عشرة شكلاً، وتيرة لاذعة وحافلة في آن. وللغرابة لم أخرج بشعور خسارة، بل بالعكس، شعور بالظفر، ظفر كفيل، كما أرى، بتعقيد كلّ محاولة مماثلة، بل جعلها مستحيلة. كان برتران يوشك على العودة. ماذا سأقول لبرتران؟ سيحاول استعادتي. لماذا قد أناوزه وخصوصاً كيف أحتمل جسماً آخر غير جسم لوك.

لم يهاتفني لوك، لا في اليوم التالي، ولا في اليوم الذي يليه. عَزَوْتُ ذلك لتعقيدات مع فرنسواز وكانت الحصيلة شعوراً مضاعفاً بالأهمّية والخجل. كنتُ أمشي كثيراً، كنتُ أفكّر في السّنة المقبلة بتحرّز وباهتمام مُبهم. ربّما كان عليّ إيجاد تخصص أكثر ذكاءً من الحقوق، وكان على لوك أن يقدّمني لأحد من أصدقائه، مُدير صحيفة. في حين أنّ قوى جاذبيتي تدفعني إلى البحث عن مبرّرات عاطفيّة، راحت في الوقت الحالي تحفّزني على الانغماس في العمل كنوع من التّعويض.

بعد تمام يومين لم أعد قادرة على مقاومة الرّغبة في رؤية لوك. لم أجرؤ على مهاتفته لذا أرسلتُ إليه كلمة؛ مندفعة ولطيفة في آن، طلبتُ منه مكالمتي. قام بذلك في اليوم الموالي: ذهب يعيدُ فرنسواز من الرّيف ولم يستطع مهاتفتي قبل ذلك. بدا لي صوتُه متوتّراً. تصوّرتُ أنّه افتقدني وللحظة كما كان يحدّثني في الهاتف، لاح لي مقهى حيثُ كنتُ سنلتقي وحيثُ سيأخذني بين ذراعيه قائلاً إنّه لا يقدر على العيش من دوني وأنّ اليومين الماضِيَيْن كانا مجرّد عبث. كنتُ سأجيب: «أنا أيضاً» دون كذب تاركة له القرار. لكن لو أنّه حقّاً واعدني في مقهى فليطمئنني إلى أنّ فرنسواز لا تطرح الأسئلة وأنّه غارق في العمل. قال: «أنتِ جميلة»، وقبّل راحة يدي.

تغيّر –عاد لارتداء بدلاته الدّاكنة- لقد تغيّر وأصبح جذّاباً. كنتُ أنظر إلى قسمات وجهه الصّافي والمتعَب. بدا لي غريباً أنّه لم يعد لي. فكّرتُ في أنّي لم «أستغلّ» كما يجب –وبدت لي هذه الكلمة بغيضة- إقامتي معه. كنتُ أحدّثه بمرح، هو أيضاً بالمثل لكن كنّا نفعل بتكلّف.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

ربما لأننا مذهولان من فكرة أن يعيش اثنان مدة خمسة عشر يوماً، وأن يمرّ هذا بشكل جيد، ودون خطورة. إنما فقط حين نهض، نذت عني حركة سخط ورغبة في أن أقول له: «لكن أين أنت ذاهب؟ لن تتركني وحدي؟». غادر وبقيت وحدي. لم يكن لَدَيّ ما يشغلني. فكّرت: «كم هذا هزلي» وهززتُ كتِفَيّ. تجوّلتُ ساعة، دخلتُ مقهى أو اثنين آملة لقاء الآخرين، لكن لا أحد كان قد وَصل. ما زال مُتاحاً أن أقضي خمسة عشر يوماً في الـ«يون». لكن بما أني كنتُ على موعد للعشاء مع لوك وفرنسواز بعد يومين فقد أجّلتُ الذهاب.

قضيتُ اليومين في السينما أو في سريري أنام وأقرأ. بدت لي غرفتي غريبة عني، أخيراً، مساء الموعد، لبستُ بعناية وزحتُ إليهما. وأنا أرنّ انتابني الخوف لحظة، لكنّ فرنسواز فتحت لي وابتسامة على مُحيّاها سرعان ما طمأنتني. أدركت أنه، كما قال لوك، لا يُمكنها أبداً أن تكون حمقاء ولا أن تلعب دوراً ليس في حجم طيبتها المفرطة ونزاهتها. لم تقع خيانتها أبداً ولن تدري بذلك أبداً.

كان عشاءً غريباً، كنّا ثلاثة، وجرت الأمور بشكل جيّد كذي قبل، الفرق الوحيد هو أننا شربنا كثيراً قبل الالتحاق بالطاولة. لم يبدُ أنّ فرنسواز على علم بشيء، لكن ربما كانت تنظر إليّ باهتمام أكثر من العادة. من حين إلى آخر كان لوك يحدّثني وعيناه في عينَيّ بصورة طبيعيّة، وكنتُ أجيب بمرح من باب إضفاء نوع من النُبل. كان حوارنا يدور حول برتران الذي سيأتي الأسبوع القادم.

- لن أكون هنا، قلت.

- أين ستكونين؟ سأل لوك.

- احتمال أن أقضي أيّاماً مع أهلي.

- متى تعودين؟، قالت فرنسواز.

- خلال خمسة عشر يوماً.

- دومينك، سأرفع الكلفة! صرّخت فرنسواز فجأة. بدا لي مرهِقاً أن أستمرّ في مخاطبتك كغريبة.

- لنرفع الكلفة جميعاً، قال لوك بضحكة قصيرة، واتّجه نحو سيّارته. تبعتُه بنظراتي وحين التفتتُ ناحية فرنسواز لاحظت أنّها كانت ترمقني. رددتُ لها النظرة بقلق، كي لا يذهب في ظنّها أني أحاول تحاشيها. وضعت يدها فوق يدي، لحظة، بابتسامة حزينة قلبت كياني.

«سترسلون...»، أعني سترسلين لي بطاقة، دومينيك؟ لم تخبريني بأحوال أمك.

- حسناً، قلت، إنها...

توقفت لأنّ لوك شغل اللّحن الذي كنّا نسمعه في الساحل وعاد إلى مخيلتي كلّ شيء. لم يلتفت. أحسستُ أنّ ذهني ارتاح قليلاً بين الزّوجين، تلك الموسيقى، مجاملات فرنسواز التي لم تكن حقيقيّة، عاطفيّة لوك التي لم تكن حقيقيّة، باختصار كلّ هذا المزيج. راودتني رغبة حقيقيّة في الفرار.

«أعشق هذا اللّحن»، قال لوك بهدوء.

جلس وأدركتُ أنه لم يفكّر في شيء. لم يفكّر حتى في حوارنا المشحون مرارة حول أسطوانات الذكريات. راود اللّحن ذاكرته مرّتين أو ثلاث مرّات فاشترى الأسطوانة ببساطة ليتخلّص منه.

«أحبه أيضاً»، قلت.

رفع عينيه نحوي، تذكّر وابتسم. ابتسم لي بحنان برحابة كبيرة إلى درجة أنّي خفضتُ عينيّ. لكن فرنسواز أشعلت سيجارة. كنتُ مُشوّشة. ليس حتى وضعاً زائفاً، إذ كان يكفي أن ينطق أحدهم كي يبدي الآخرون آراءهم بموضوعيّة وحياد كأنّ الأمر لا يخصّهم.

«سنشاهد المسرحيّة أم لا؟»، قال لوك.

واستدار ناحيتي ليشرح لي:

«تلقّينا دعوة لحضور مسرحيّة جديدة. يمكننا الذّهاب ثلاثتنا...

- أوه! نعم، قلت، لِمَ لا؟

كدتُ أضيف مع بداية نوبة ضحك: «خصوصاً مع ما وصلنا إليه!»

أخذتني فرنسواز إلى غرفتها كي تجعلني أجرّب أحد معاطفها، كان أفضل من الذي أملكه. لبستُ واحداً أو اثنين، جعلتني ألفّ، ورفعتُ الياقة. وصبغت وجهي بين جزئي الياقة وفكّرت بالنّفس الضّاحك ذاته في داخلي: «أنا الآن تحت رحمتها، ربّما خنقتني أو عضّتني». لكنّها اكتفت بالابتسام.

- أنتِ غارقة في داخله.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- صحيح، قلت، دون التفكير في المعطف.

- يجب أن أراك لدى عودتِك.

- «انتهى! فكّرت. هل ستطلب مني عدم رؤية لوك مُجدداً؟ هل سأستطيع؟» وسرعان ما جاءني الردّ: «لا، لم أعد أقدر».

«فقد قرّرتُ أن أهتمّ بك، أن أجعلكِ تلبسين جيّداً. وأريك أشياء ظريفة بَدَلَ الطّلبة والمكتبات».

«أوه! إلهي؛ فكّرت، ليس هذا الوقت المناسب لتقول لي ذلك، ليس هذا الوقت المناسب».

- لا؟ أضافت أمام صمتي. ظننت أنّكِ ابنتي. (قالت ذلك ضاحكة، لكن بحياء).

بلى إنّها فتاة عنيدة وصاحبة فكر...

- أنتِ لطيفة جدّاً، قلت وأنا أمعن في الوقت. لا أدري ماذا علَيّ أن أفعل.

- اسمحي لنا أن نفعل، قالت ضاحكة.

«أنا على رأس وكر جميل، فكّرت. لكن إذا كانت فرنسواز تحبّني حقّاً، وتصرّ على رؤيتي، فهذا يعني أنّي سأرى لوك بشكل مُكثّف. ربّما شرحت له ذلك، لها. ربّما سيكون سيّان بالنسبة إليه، بعد عشر سنوات من الزّواج».

«لماذا تحبّينني كثيراً؟» سألت.

«لأنّ لديك طبع لوك. طبائع تعيسة، مهيّأة فقط ليواسيها كائن مرتخٍ مثلي».

«لن تهربي...».

في خيالي رفعتُ يدي إلى السّماء. ثمّ توجّهنا إلى المسرح. كان لوك يضحك ويتحدّث. كانت فرنسواز تفسّر لي علاقة النّاس بعضهم ببعض ومن هم إلخ. أقلّتني إلى الإقامة وقبّل لوك كفّ يدي بشكل طبيعي.

عدتُ مندهشة قليلاً، نمت، وفي اليوم الموالي استقلّيتُ القطار في اتّجاه الـ«يون».

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثاني

لكن الـ«يون» كانت رماديّة والسّأم فيها لا يُطاق. لم يكن سأماً نابعاً من الدّاخل بل من شخص ما. عدتُ بعد أسبوع. وأنا أجهّز أغراضي استيقظت أمّي وسألتني إن كنتُ سعيدة. أجبتُ بنعم مُطمئِنة إيّاها، قلتُ لها إنّي أحبّ الحقوق وأنّي أعمل بجدّ وأنّ لَدَيّ أصدقاء كثيرين. غادرت إذاً ببال مرتاح في حزنها. ولا لحظة واحدة –الأمر الذي اعتراني في السّنة السّابقة- لم تراودني الرّغبة في أن أروي لها كلّ شيء. ثمّ ماذا كنتُ سأروي لها؟ مؤكّد أنّي أتقدّم في السنّ.

في الإقامة وجدتُ كلمة من برتران يطلب منّي فيها بأن أهاتفه لدى عودتي. دون شكّ أدين له بشرح ما –لأنّي لا أثق كثيراً في كتمان كاترين للأسرار- لكنّي حقّاً أدين له بذلك. هاتفتُه إذاً وضربنا موعداً. في الانتظار قمتُ بالتّرسيم في المطعم الجامعي.

عند السّادسة التقيت برتران في مقهى شارع «سان جاك» وبدا لي أنّ شيئاً لم يحدث وأنّ كلّ شيء يبدأ من جديد. لكن ما إن نهض وقبّلني على خدّي بتأنيب ضمير، تذكّرتُ الحقيقة. حاولتُ بجُبنٍ أن أبدو خفيفة ولا مبالية.

- صرتُ وسيماً، قلتُ، بنزاهة حقيقيّة وبسخرية داخليّة:

«خسارة»

- أنتِ أيضاً، قال باقتضاب. أريدك أن تعلمي بأنّ كاترين روت لي كلّ شيء.

- كلّ شيء ماذا؟

- عطلتك في السّاحل. مقطع أو اثنان جعلاني أخمّن بأنّ الإقامة كانت مع لوك. صحيح أم لا؟

- نعم، قل (كنتُ مذهولة. لم يكن غاضباً، كان فقط هادئاً وحزيناً قليلاً).

- «حسناً: أنا لستُ من أولئك الذين يشاركون غيرهم في أيّ شيء. ما زلتُ أحبّك: كفاية كي أغضّ الطّرف؛ ليس ما يكفي كي أعاني من الغيرة وأتألّم بسببك مثلما حدث خلال الرّبيع. ما عليك سوى أن تختاري»، قال ذلك كما لو كانت معاهدة.

«أختار ماذا؟» شعرت بالسّأم. حسب توقّعات لوك لم أفكّر في برتران بصفته عنصراً في المأزق.

«إمّا أن تتوقّفي عن رؤية لوك ونستمرّ أنا وأنت. أو ألّا تقطعي علاقتك به ونظلّ مجرّد أصدقاء. هذا كلّ شيء.

- طبعاً، طبعاً

لم أجد البتة ما أقول. بدا لي أنه ناضج وجاد؛ لقد أثار إعجابي قليلاً. لكنه لم يكن يعني لي شيئاً، لا شيء على الإطلاق. وضعتُ يدي فوق يده.

«آسفة، قلت، لا أستطيع».

ظلّ صامتاً لحظة، ينظر عبر النافذة.

- هذا قاسٍ قليلاً، قال.

- لا أحبّ أن أتسبب لكم في الألم، قلتُ وكنتُ حقاً أتوسل إليه.

- هذا ليس الأصعب، قال كأنه يحدّث نفسه. سترين. ما دُمنا قد اتّخذنا قرارنا فلا بأس، الأصعب حين نتعلّق.

استدار ناحيتي فجأة:

- تحبينه؟

- لا، قلت، متضايقة. هذا غير مطروح. نحن مثقفان، هذا كلّ ما في الأمر.

- في حال كان لديك أيّ مشكلات فأنا جاهز، قال. وأظنّ أنه سيكون لديه منها. ستَرَيْن: لوك، إنه لا شيء، هو فقط ذكاء حزين. هذا كلّ شيء.

فكّرتُ بحركة من الغبطة في حنان لوك، في ضحكاته.

«صدّقيني. على كلّ حال، أضاف بنوع من الاندفاع، سأكون إلى جانبك، دومينيك. كنتُ دائماً سعيداً معك».

انتابت كِلَينا رغبة في البكاء. هو، لأنّ كلّ شيء قد انتهى ولأنّ عليه التفاؤل رغم ذلك؛ وأنا لإحساسي بأنّي بصدد فقدان حارسي الطبيعي لأقذف بنفسي في مغامرة مجنونة. نهضت وقبّلته برفق.

«إلى اللّقاء برتران. سامحني.

- يمكنك الذّهاب، قال برقّة.

خرجتُ مثبّطة الهمّة تماماً. لاحت السّنة الجديدة جيّدة...

كانت كاترين تنتظرني في غرفتي، جالسة على سريري بسحنة مأساوية. لمّا دخلتُ نهضت ومدّت لي يدها. صافحتُها دون مرح وجلست.

«دومينيك، أريد أن أعتذر منك. ربّما ما كان عليّ أن أخبر برتران بشيء. ما رأيك؟»

أعجبني أنّها سألت، لكن لم يكن لذلك أهمّية.

- طيب، قالت براحة

جلَسَت ثانية، مُثارة وسعيدة.

«والآن، احكِ لي».

لم أفُه بكلمة ثمّ انفجَرتُ ضاحكة.

«آه! لا. أنت رائعة، كاترين. أزحتِ برتران – هوپ، مركون! – و، هي نُقطة أبعدَت، هيّا، إلى الأعمال الفاتحة للشهيّة!

لا تهزئي بي، قالت بنبرة طفلة صغيرة. احكِ لي كلّ شيء.

- ليس هناك ما أرويه، أجبت بجفاف. أمضيتُ خمسة عشر يوماً على الشاحل مع رجل يعجبني. ولأسباب عديدة تقف الحكاية عند هذا الحدّ.

- متزوّج؟ سألت بتهذيب.

- لا، أصمّ وأبكم. الآن عليّ أن أفرغ حقيبتي.

- أنا مطمئنة، سترويه لي كلّ شيء، قالت.

«المصيبة، هي أنّه ربّما كان ذلك صحيحاً، فكّرتُ وأنا أفتح دولابي. يوم مقرف...».

- أمّا أنا، تابعت، كما لو كان اعترافاً، أنا مغرمة.

- بمن منهم؟ آه! مغرمة بالأخير، طبعاً.

- إن كان الأمر لا يهمّك...

لكنّها واصلت. انهمكت في الترتيب بغضب. «لماذا لَديّ صديقات غبيات؟ لن يتحمّلها لوك. لكن ما دخل لوك هنا؟ هنا، حياتي».

«... باختصار، أحبّه، ختمت».

- بماذا تعرّفين الحبّ؟ سألتُها بفضول.

- لا أدري. الحبّ، هو أن تفكّر في أحدهم، أن تخرج معه، أن تؤثِره على غيره. أليس كذلك؟

- لا أدري. ربّما.

انتهيتُ من الترتيب. جلستُ على حافّة السرير مُحبطة. تظاهرت كاترين باللُّطف.

«عزيزتي دومينيك، أنت مجنونة. أنتِ لا تُفكّرين بشيء. تعالَي معنا هذا المساء. أخرج مع «جون لوي»، طبعاً، وأحد أصدقائه، شخص ذكي يهتمّ بالأدب. سيرفّه عنكِ».

على أيّ حال ليس لَديّ نيّة مهاتفة لوك قبل يومين. ثمّ إنّي منهكة؛ بدت لي الحياة كدوّامة كئيبة، وحده لوك ثابتٌ في قلبها.

وحده يفهمني، يساعدني. كنتُ في حاجة إليه.

نعم، كنتُ في حاجة إليه. لا يمكنني أن أطلب منه شيئاً، لكنّه كان مسؤولاً بشكل غامض. فقط عليه ألّا يعلم بذلك.

الاتّفاقات يجب أن تكون هناك اتّفاقات، خصوصاً حين تتناقض مع الآخرين.

«هيا، قلت، لنرى صديقك جون-برتران وصديقه الذكيّ. أن أسخر من الذكاء، كاترين. لا ليس صحيحاً؛ لكنّي لا أحبّ سوى الذكاء الحزين. الذين يتدبّرون أمرهم بشكل جيّد يشنّجون أعصابي.

- «جون لوي»، احتجّت، وليس جون-برتران، يتدبّر ماذا؟

- من هذا؟ قلت، بتشديد، وأشرتُ إلى النافذة، إلى السماء الرّماديّة الورديّة التي خلفها، كانت كآبتها توحي بجحيم رحيم، السّماء القريبة.

«لا تسير الأمور جيّداً»، قالت كاترين بصوت قلِق، وأخذتني من ذراعي ونحن ننزل السُّلم، حريصة على موطِئ خطواتي نيابة عنّي. في النّهاية، أنا أحبّها.

«جون لوي» خاصّتها كانَ وسيماً، ذاك النوعُ الغريب من الوسامة. لكنّها تُعجب. أمّا الصّديق، «ألان»، فكان أنيقاً، ظريفاً، مع نوع من الحدّة في الذّكاء، ذاك الذي يُرافقُه سوء النيّة وتقلُّب المزاج الذي يفتقر إليه برتران. سُرعان ما تركنا كاترين مع عشيقها الذي، مثلها تماماً، لا يفهم العلاقة، إلّا بشق إلى التحوّل من مكان إلى آخر. من مقهى إلى آخر، واصطحبني «ألان» إلى إقامتي متحدّثاً عن «ستندال» وعن الأدب، الأمر الذي أثار اهتمامي منذ سنتين. لم يكن لا دميماً ولا وسيماً؛ لا شيء. قبلتُ برحابة صدر تناول العشاء معه في اليوم الموالي، مُتضرّعة ألّا يكون

ذلك اليوم يوم راحة لدى لوك. كان كلّ شيء يصبّ فيه، يرتبط به دون تدخّل مني.

الفصل الثالث

باختصار، أحبّ لوك، وشرعان ما وعيت ذلك بعد اللّيلة الأولى التي قضيتها معه من جديد. كان ذلك في فندق على الجادة؛ كان مُمَدّداً على ظهره بعد الحبّ. وكان يحدّثني مغمض العينين. قال: «قبّليني». واستندتُ على مرفقي كي أقبّله. لكن وأنا أميلُ عليه، انتابني نوع من الغثيان، يقينا لا شفاء منه بأنّ هذا الوجه، هذا الرّجل، هو الشّيء الوحيد الذي أملكه. وأنّ هذا اللّذّة التي لا تُحتمَل، ما ينتظرني عند الوصول إلى هذا الفم، كانت السّعادة، انتظار الحبّ. أن أحبّه. واستلقيتُ فوق كتفه، دون تقبيله، مع أنين خوف ضعيف.

- لديك نعاس، قال وهو يضع يده على ظهري، وضحك قليلاً. أنتِ مثل حيوان صغير، بعد الحبّ إمّا تنامين أو تشعرين بالعَطَش.

- أظنّ، أنّي أحبّك جدّاً، قلت.

- أنا أيضاً، قال وضرب على كتفي.

كلّما مرّت ثلاثة أيّام لا تريننني فيها تعيدين بيننا الكلفة، لماذا؟

- أحترمك، قلت. أحترمك وأحبّك.

ضحكنا معاً.

- لا، بجدّ، تابعت بغبطة، ما دامت قد خطرت لي هذه الفكرة، ماذا ستفعل إن أحببتك حقّاً؟

- لكن، أنت تحبّينني حقّاً، قال، مُغمَض العينين.

- أعني، إذا تعلّقتُ بك، إذا أردتك لي كلّ الوقت...؟

- سأكون سئماً جدّاً، قال. لن أشعر حتّى بالإطراء.

- ماذا كنتَ ستجيبني؟

- كنتُ سأقول لكِ: «دومينيك، إيه... دومينيك، اعذريني».

زفرتُ. لم يكن إذاً ليزدُ الفعل بفظاظة الرّجل الحذر صاحب الضّمير اليقظ؛ «لقد أنذرتُكِ منذُ البداية».

أنا أسامحك مسبقاً، قلت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- مزري لي سيجارة، قال بكسل، إلها إلى جانبك.

دخنا بصمت. قلت في نفسي: «حسناً، أحبه. ربما لا يتخطى الحبّ أن يكون المرء: «أحبه»، ليس سوى «هذا»؛ لكن في منأى عن «هذا»، لا سلام».

فعلاً، لم يكن سوى «هذا» طيلة أسبوع بأسره: المكالمة التي جاءتني من لوك: «هل أنت حرّة ليلة الـ15 إلى الـ 16؟»

ظلّت هذه الجملة تعاود الظهور أمامي كلّ ثلاث أو أربع ساعات كما نطق بها تماماً، ببرود، لكنها كانت في كلّ مرّة تقرع بثقل متفاوت داخلي، بين السعادة وبين الاختناق. والآن أنا بجانبه والوقت يمرّ، بطيئاً وأبيض للغاية.

- يجب أن أذهب، قال. الخامسة إلّا الربع! لقد تأخّر الوقت.

- نعم، قلت، فرنسواز هنا؟

- قلتُ لها إنّي سأخرج مع بلجيكيين إلى «مون مارتر».

لكن يجب أن تكون الكباريهات قد أغلقت الآن.

- ماذا ستقول؟ الخامسة، وقتٌ متأخّر حتى مع بلجيكيين.

كان يحدّثني مغمض العينين.

- سأعود؛ سأقول: أوه! مجرّد تعديد... ليس لديّ رغبة في الكذب. لو كنتُ قادراً على شيء ما لأحببتُك.

- ماذا كان سيغيّر ذلك؟

- لا شيء، لا شيء لنا. حسناً، لا أظنّ. فقط ربما أصبحتُ تعيساً بسببك، فيما أنا سعيد.

تساءلتُ ما إذا كان هذا نوعاً من التحذير المتعلّق بما قلتُه منذ قليل، لكنه وضع يده على رأسي بإجلال:

«يمكنني الاعتراف بكلّ شيء. أحبّ هذا. لا يمكنني أن أقول لفرنسواز بأنّي أحبّها جدّاً بصدق، بأننا لا نملك أرضيّة تفاهم ونزاهة رائعة. المحور الأساسي هو تعبي وسأمي. أرضيّة صلبة، وجيّدة. في الإمكان بناء علاقات متينة ودائمة على أشياء كهذه: الوحدة، الملل. على الأقلّ هي أمور لا تتحرّك أبداً».

رفعتُ رأسي عن كتفه:

«إنها...».

كنتُ سأضيف: «لعنات»، مع الحركة الشديدة التي قمتُ بها للاحتجاج، لكنني صمتُّ.

«إنها ماذا؟ إذاً، هل عاد الشباب؟»

راح يضحك بدفء.

«قطي المسكين، أنتِ صغيرة وعزلاء. ونازعة للسلاح أيضاً، لحسن الحظ. هذا يطمئنني».

رافقني إلى الإقامة. في الغد كنتُ على موعد للعشاء معه ومع فرنسواز وصديقٍ لهما. قبلتُه عبر زجاج السيارة لأودّعه. كانت لديه قسمات واضحة، ويبدو متقدّماً في السنّ، تلك الشيخوخة جرحتني لوهلة قليلاً، ثمّ جعلتني أحبّه أكثر.

الفصل الرابع

في اليوم التالي، استيقظتُ مفعمة بالنشاط. أستفيق عادة بإحساس بغياب النوم. نهضت، اتجهتُ إلى النافذة. استنشقت هواء باريس وأشعلتُ سيجارة دون رغبة. ثمّ عدتُ إلى النوم، ليس قبل أن أرى نفسي في المرآة، وجدتُ عينيّ منهكتين، سحنتي جادّة. باختصار، هيئة لائقة. قرّرتُ أن أطلب من صاحبة الغرف أن تشعل السخّان منذ الغد، لأنّها فعلاً كانت تبالغ.

«إنّه برد قاتل هنا»، قلت بصوتٍ مسموع، وبدا لي صوتي مبحوحاً وهزلياً.

«عزيزتي دومينيك، أضفت، لديك شغف، عليكِ القيام بهذا: المشي، القراءة الفوجهة، شباب في مقتبل العمر، عمل خفيف ربّما. هذا هو كلّ شيء».

لا يمكنني أن أقاوم شعوراً بالشغف بنفسي. هيّا لَديّ حبّ فكاهي، يا للشيطان! كنتُ في سلام مع نفسي. الولع! حتّى أنّي على موعد عشاء مع من أشعل ناري.

التحقتُ بفرنسواز ولوك، يرافقني كما هو الحال بالنسبة إلى القرابين، نوع من التحرّر الهشّ، الناجم عن نشوة جسديّة أعرف أسبابها.

ركبتُ الأوتوبيس وهو يسير وانتهز المراقب الفرصة كي يُمرر ذراعه حول خصري بحجّة مساعدتي. قدّمتُ له تذاكره وتبادلنا ابتسامة تآمر، هو الرّجل عاشق النساء وأنا المرأة المُعتادة على الرّجال مثله. بقيت على المنصّة مستندة على الدرابزين وكان الأوتوبيس يصدر صريراً على الإسفلت يتمايل قليلاً. جيّد، كنتُ جيّدة مع نقص النوم، مشدودة بين أجزاء الحافلة.

كان الصّديق المجهول قد حضر بعد إلى بيت فرنسواز، رجل بدين، أحمر وجاف. لم يكن لوك هناك لأنّه، كما روت فرنسواز، أمضى ليلة مع حرفاء بلجيكيين وأنّه استيقظ عند العاشرة فحسب. قصّة البلجيكيين مع «مون مارتر» مملّة جدّاً.

لاحظتُ أنّ الرّجل البدين كان يرمقني، وأحسستُ بأنّي أحمَرُّ.

دخل لوك؛ بدا لوك متعباً.

- آه، پيير، كيف حالك؟

- ألم تكن تنتظر مجيئي؟

كان لديه ناحية عدائيّة. ربّما فقط لأنّ لوك لم يندهش من وجودي بل من وجوده.

- بلى، صديقي، بلى، قال لوك بابتسامة عريضة. ألا يوجد شيء نحتسيه هنا؟ ما هذا الشيء الأصفر الأخاذ في كأسك، دومينيك؟

- ويسكي فاتر، أجبت، لم تعد تعرفه؟

- «لا»، قال، وجلس على الأريكة كما نجلس عادة في محظة، على حافة المقعد. ثمّ ألقى علينا نظرة –نظرة محظة- شاردة وبلا اهتمام. بدا صبيانياً وعنيداً. ضحكت فرنسواز.

«لوك، المسكين، لديك الشحنة السيئة لدومينيك. لا بأس، سأهتف بكلّ هذا. سأقول لبرتران...».

شرحت ما ستقوله لبرتران. لم أنظر إلى لوك. لم يكن بيننا أدنى تآمر في شأن فرنسواز، لحسن الحظ. بل لقد كان ذلك هزلياً حتّى. كنّا نتحدّث عنها كما لو طفلاً عزيزاً علينا يسبّب لنا القليل من الشّجن.

«هذه الفوضى لم تنجح مع أحد»، تابع المدعو «پيير»، وانتبهت فجأة إلى احتمال أن يكون على علم بما حدث في «كان»، ربّما كان يعلم. هذا يفسّر نظرات الحقد منذ البداية، جفاءه وتلميحه من بعيد. أذكر أنّنا التقينا به وأنّ لوك قال بأنّه مغرم جدّاً بفرنسواز. مؤكّد أنّه مستاء، وربّما ثرثار. صنف كاترين: لا نُخفي شيئاً عن الأصدقاء، نؤدّي الخدمات، لا نسمح لأحد باستغلال كذا، إلخ. ولو علمت فرنسواز، لو حدّقت فِيّ بكراهية، بسخط، بكلّ ما هو بعيد عن طبيعتها وكما يبدو لي، أقلّ ممّا أستحقّ، عندها ماذا سأفعل؟

«إلى الغداء، قالت فرنسواز، أكاد أموت جوعاً».

ذهبنا، مشياً على الأقدام إلى مطعم قديم. أخذتني فرنسواز من تحت ذراعي وتبعنا الرّجلان.

«طقس رائع، قالت، أعشق الخريف». ولا أدري لِمَ أيقظت لديّ هذه الجملة ذكريات غرفة «كان»، لوك عند النّافذة، قائلاً:

«عليكِ أن تأخذي حقاماً وكأس سكوتش، إثر ذلك سيكون كلّ شيء على ما يُرام». كان يومنا الأوّل، لم أكن سعيدة للغاية؛ كان أمامي خمسة عشر يوماً مع لوك، النّهار، اللّيل. ذلك ما كنتُ أتمنّاه والذي لن يتحقّق بلا شك. لو كنتُ أعلم... فقط لو كنتُ أعلم، لما اختلف شيء. هناك جملة لـــ«پروست» في هذا الشّأن: «من النّادر جدّاً أن تأتي السّعادة لتقع بدقّة على الرّغبة التي دعتها». تلك اللّيلة حدثت: عندما اقتربتُ من وجه لوك، بعدما كنتُ قد اشتقتُ إليه أسبوعاً بأسره، تلك الصّدفة سبّبت لي نوعاً من الدّوخة، النّاجمة ربّما ببساطة عن الغياب المباغت للفراغ

الذي تقوم عليه حياتي. فراغ يمنحني الشعور بأن حياتي ليست حليفتي. في حين أنه على العكس، في تلك اللحظة، راودني إحساس بأني أنصهر مع حياتي وأبلغ معها الذروة.

«فرنسوازا» نادى «بيير» خلفنا. استدرنا وغيرنا الرفيق. ألفيت نفسي في الأمام بجانب لوك، نمشي بإيقاع الخطا نفسه في الشارع الأحمر، مؤكد أننا نفكر في الأمر نفسه لأنه ألقى عليّ نظرة مستفهمة، وحشية تقريباً.

«آه، نعم»، قلت.

هز كتفيه بحزن: حركة لا تشبه شيئاً وشت بتعبير على وجهه.

أخرج سيجارة من جيبه. أشعلها وهو يمشي ومدها إليّ. كلما تضايقَ لجأ إلى هذا الحل. رغم أنه رجل خالٍ من العادات.

«هذا الشخص يعرف ما بيني وبينك»، قال.

قال ذلك كفكرة، دون خشية ظاهرة.

«هل هذا خطير؟

- لن يُقاوم فرصة مواساة فرنسواز. أضيف أنّ المواساة لا تقف عند أيّ حدّ.

أعجبتْ لحظة بثقته الذكوريّة.

«إنه فظّ رقيق، قال. صديق جامعة لفرنسواز؛ تتخيلين؟»

أتخيل.

أضاف:

- يزعجني وجوده في حال سبب الألم لفرنسواز. أن تكوني أنتِ...

- أكيد، قلت.

- سيزعجني لأجلك أيضاً، أن يأتي ألمها من جهتك. في وسع فرنسواز أن تفيدك كثيراً. إنها صديقة حقيقية.

- ليس لديّ أصدقاء آمنُ جانبهم، قلت بحزن. لا شيء حقيقيّ في حياتي.

- حزينة؟، سألني، وأخذ يدي. تأثرتُ كثيراً بحركته، بالمخاطرة التي خاضها لأجلي ثمّ غمرني

الحزن. نعم، لقد أمسك يدي ومشينا هكذا أمام عيني فرنسواز؛ لكنّها تعرف جيداً أنّه لوك، الرّجل المتعب، من يمسك بيدي. لابدّ أنّها لم تُسئ الظنّ قائلة؛ لو كان لديه نية سيئة لما فعل ذلك. لا، لم يكن هناك تهديد يتربّص به. كان رجلاً لا مبالياً. ضغطتُ على يده: فعلاً كان هو، لا أحد غيره. وأن يكفي ذلك ليشغل أيّامي، هذا ما أستغربه.

«لستُ حزينة، قلت. لا شيء».

كنتُ أكذب. وددتُ لو أنّي قلتُ له بأنّي أكذب وأنّي في حاجة إليه، لكنّ ذلك كلّه يُصبح وهمياً حين أكون بجانبه. لا شيء، لم يكن هناك شيء عدا خمسة عشر يوماً ساحرة، لوحات خياليّة، حسرة. لِمَ أنا مُمزّقة هكذا؟ سرٌّ مؤلم من أسرار الحبّ، فكّرتُ بسخرية.

في الواقع أنا أؤاخذ نفسي لأنّ عهدي بنفسي قويّة، وحرّة إلى حدّ، وذكيّة ما يكفي لأمنح نفسي حبّاً سعيداً.

كان الغداء طويلاً، لاحظتُ أنّ لوك كان مضطرباً. كان وسيماً وذكيّاً ومُرهقاً. لا رغبة لي في أن نفترق. خطّطتُ للشتاء بضبابيّة. وهو يودّعني، قال إنّه سيهاتفني في الغد. فرنسواز أيضاً قالت إنّها ستهاتفني لنذهب إلى رؤية لا أدري من.

لم يهاتِفني أحد منهما. دام ذلك عشرة أيّام. تحوّل خلالها اسمُ لوك إلى جفلٍ ثقيل. أخيراً هاتفني. أخبرني إنّ فرنسواز على علم بكلّ شيء وأنّه سيتّصل بي حالما تسمح ظروفُه فهو مشغول جداً. كان صوتُه ناعماً. لبثتُ جامدة في غرفتي دون أن أستوعب ما يجري. كنتُ على موعد مع «ألان» للعشاء. لم يكن بيده حيلة لأجلي، كنتُ شبه مُحطّمة.

رأيتُ لوك مرّتين خلال الأسبوعين التاليين. مرّة في حانة على جادة فولتير، وأخرى في غرفة حيث لم نجد ما نقول، لا قبلُ ولا بعد. كان للأشياء ذلك الطّعم البغيض للرّماد، كان مثيراً للغرابة حقّاً أن تؤيّد الحياة ما اتّفقت عليه الرّوايات.

أدركتُ بشكل حاسم بأنّي لم أوجد كي أكون متآمرة رجل مُتزوّج مَرحة. كنتُ أحبّه. كان عليّ التفكير بأنّ الحبّ هو هذا: هذا الهوس، ذلك الحرمان المؤلم. حاولتُ أن أضحك. لم يجب. حدّثني بهدوء، بحنان، كما لو كان يموت... لقد أحسّت فرنسواز بالأسى كثيراً.

سألني ماذا كنتُ أفعل. أجيبُه بأنّي أعمل، بأنّي أقرأ. لم أكن أقرأ أو أرتاد السّينما إلّا لأحدّثه عن هذا الكتاب أو ذاك أو لأحدّثه عن ذاك الفيلم الذي أشار عليّ به وقال إنّه يعرف مُخرجَه. كنتُ، بيأس، أبحثُ عمّا يمكن أن يجمع بيننا. شيئاً ما مُختلف عن هذا الأسى الدّنيء الذي تسبّبنا

فيه لفرنسواز، دون جدوى. مع ذلك لم نفكّر في الشعور بالندم. لا يمكنني أن أقول له: «تذكّر». كان ذلك معناه أنّي أغشّه وأرعبه. لا يمكنني أن أقول له إنّي أرى، أو أتوهم بأنّي أرى سيارته في الطريق حيثما اتّجهت، بأنّي أبدأ رقفه دون توقّف ولا أتّقه أبداً، بأنّي أسأل صاحبة الإقامة بشكل محموم لدى عودتي، بأنّ كلّ شيء يفضي إليه وأنّي أرغب فيه حدّ الموت.

لم أكن أملك الحقّ في شيء. لا شيء، مع ذلك كان وجهه هو الفسيفساء يداه، صوته الدافئ، وكلّ ذلك الماضي الذي لا يُحتمل... نحل جسمي.

«الآن» كان طيباً. في أحد الأيّام حدّثته بكلّ شيء. كنّا نمشي كيلومترات، وكان يناقش شغفي كموضوع أدبي، ما يجعلني أتراجع إلى الوراء لأخوض في الأمر مع نفسي.

«كنتِ مع ذلك تعلمين بأنّ القصّة ستنتهي، قال. بأنّك سترويين ذلك بمرح بعد ستّة أشهر أو بعد سنة.

- لا، لا أريد، قلت. لا أدافعُ فقط عن نفسي، بل عن كلّ ما دار بيننا. «كان»، ضحكاتنا، تفاهمنا.

- لكن، هذا لا يمنع من أن تكوني على علم بأنّ كلّ ذلك لن يعني شيئاً يوماً ما.

- أعلم ذلك جيداً، لكنّي لم أشعر به. الأمرُ كان سيان. الآن، الآن لا وجود سوى لذلك.

مشينا. رافقني إلى الإقامة مساءً، ضغط على يدي بقوّة ولمّا صرتُ في الداخل سألتُ المالكة إن كان السيد لوك قد هاتفني. قالت لا وابتسمت. استلقيتُ على فراشي ورحتُ أفكّر في «كان».

قلتُ في نفسي: «لوك لا يُحبّني»؛ وسبّب لي ذلك ألماً مكتوماً عصر قلبي. أعدتُها على نفسي وعاد الألم الخفيف، أكثر حدّة أحياناً. أنا أتقدّم إذاً؛ وبدا لي أنّ مجرّد كون هذه الوخزة تحت تصرّفي، مستعدّة لإغاثتي، وفيّة، متأهّبة لندائي، فأنا أملكها. قلتُ لنفسي: «لوك لا يحبّني»؛ فيأتي ذلك الشيء ليقلب كياني. لكن حتّى لو كنتُ أتحكّم في تلك الوخزة فأنا أظلّ عاجزة عن منعها من الظهور بغتة خلال درس أو فطور، فتفاجئني وتُسبّب لي الألم. كما ليس في وسعي أن أمنع السأم اليومي، المبرّز، هذا الوجود اليرقي(11) في المطر. تعب اليدين، الدّروس عديمة الطّعم، الجوارات. أنا أعاني. أقول لنفسي إنّي أعاني، بفضول، بسخرية، لأتحاشى تلك البداهة المثيرة للشّفقة للحبّ المجروح. ما كان يجب أن يحدث حدَث. التقيتُ لوك ذات مساء، تجوّلنا في الغابة بسيارته. قال إنّ عليه الذّهاب إلى أمريكا مدّة شهر. قلتُ هذا مهمّ. ثمّ اجتاحتني الحقيقة: شهر. تناولتُ سيجارة.

- حين أعود، تكونين قد نسيتِني قال.

- لماذا، سألت.

- عزيزتي، يجب أن يكون أفضل لك، أفضل بكثير... وأوقف السيارة.

رمقته. كان وجهه متوترأ، آسفاً. هكذا، لقد عرف. إنه يعرف كل شيء. لم يكن مجرد رجل للحب، كان أيضاً صديقاً. تعلقت به فجأة. ألصقت خدي بخده. تأملت ظلال الأشجار. سمعت صوتي يقول أشياء لا تصدق.

«لوك، لم يعد هذا ممكناً. لا يجب أن تتركني. لا أستطيع العيش من دونك. يجب أن تظل معي. أنا وحيدة، أنا وحيدة جداً. هذا لا يحتمل».

سمعت صوتي مندهشة. كان صوتاً وقحاً، شاباً، متضرعاً. قلت لنفسي ما أتخيل أنها إجابته: «لا بأس، لا بأس، سيمر كل ذلك، اهدئي». لكني واصلت كلامي مع لوك حتى صمتت. أخيراً كما لو أنه يوقف مد الكلام هذا، أخذ رأسي بين يديه، قبل شفتي برفق.

«صغيرتي المسكينة، قال، صغيرتي الرقيقة».

كان صوته مرتبكاً. فكرت بأنه الوقت المناسب و: «أصلح جداً للشكوى»، رحت أبكي على معطفه. مر الوقت، سيصطحبني بعد قليل إلى المنزل، سأستسلم له ريثما ينهي، ثم بعد ذلك لن يعود هنا.

ندت علي حركة تنفر.

«لا، قلت، لا».

تشبثت به، تمنيت لو أني هو، أن أزول.

«سأهاتفك، وسأراكِ قبل أن أرحل، قال... سامحيني، دومينيك، سامحيني. كنت سعيداً معك. سيمر كل شيء. أعطي أيّ شيء كي...». وبدرت منه حركة عجز.

«كي تحبني؟»، قلت.

- نعم.

كان خده ناعماً، حاراً بدموعي. لن أراه قبل شهر، لم يكن يحبني. غريب أمر اليأس؛ غريب أمره حين ينجو منه المرء. اصطحبني إلى المنزل. لم أعد أبكي. كنت منهكة. اتصل بي اليوم الموالي والذي يليه. يوم رحيله أصبت بنزلة برد. صعد لرؤيتي لحظة. كان «الآن» هناك، ماراً، وقبلني لوك من خدي، سيكتب لي.

CamScanner بـ الممسوحة ضوئيا

الفصل الخامس

أستيقظ أحياناً في عمق اللّيل بجفاف في الفم، وقبل أن يغادرني النوم، شيء ما يهمس لي بالعودة. بالغوص في الحرارة من جديد، في اللاوعي، كأني في هدنة. لكني كنت أقول بعد:

«إنه مجرّد عطش؛ يكفي أن أنهض، أسيرَ نحو حوض الغسل، أشرب وأعود إلى النوم». إنما حين أقف وأرى انعكاس صورتي في المرآة، مُضاءة بضبابية من قبل أنوار الشارع، ويسيل الماء الفاتر في حنجرتي، يتملكني اليأس وبألم جسدي حقيقيّ أنام مُرتجِفة. وأنا مُستلقية على بطني، أضعُ رأسي بين يَدَيّ، وأضغط بجسمي على السرير كما لو كان حبّي لـــلوك حيواناً، أسحقُه بثورة بين جلدي وبين الملاءة. ثمّ تبدأ الحرب. ذاكرتي ومُخيّلتي تتحوّلان إلى عدوّ شرس.

كان هناك وجه لوك، «كان»، ما كان، وما كان يمكن أن يحدث. ودون هوادة، تستمرّ ثورةُ جسمي المُتعب، ذكائي المُستنفر.

نهضتُ، قمتُ بحسابات: «أنا نفسي، دومينيك. أحبّ لوك الذي لا يحبّني. حبّ غير مُشترك هو حزن لابدّ منه. هيّا اقطعي».

رحتُ أفكّر في وسائل للقطع النهائي، أن أرسل لـــلوك رسالة أنيقة، نبيلة، أشرح له فيها أنّ كلّ شيء قد انتهى. لكنّ الرسالة لم تكن حقّاً تهمّني إلّا من زاوية أنّ أناقتَها ونُبلَها يقرّبانني من لوك. ولا أرى نفسي مُنفصِلَة عنه بهذه الطريقة الوحشيّة التي لاح لي منها المخرجُ مُسبقاً.

يكفي أن نتحرّك كما يقول الناس العقلاء. لكن أن أتحرّك لأجل من؟ لا أحد يهمّني حتّى نفسي. لا تهمّني نفسي إلّا إذا كانت تقودني إلى لوك.

كاترين، «ألان»، الشوارع. ذاك الشابّ الذي قبّلني في غفلة منّي. والذي لم أتمنّ رؤيته من جديد. الأمطار، السريون، المقاهي. بطاقات أمريكا. أكره أمريكا. الشأم. ألا ينتهي هذا أبداً؟ مضى أكثر من شهر على رحيل لوك. أرسل إليّ كلمة رقيقة وحزينة أحفظها عن ظهر قلب.

ما يواسيني هو أنّ ذكائي الذي طالما عارض شغفي بلوك، وسخر منه، وحقّرني على الدوام مُثيراً في داخلي حوارات مُعقّدة، تحوّل تدريجياً إلى حليف. لم أعد أقول: «لتنهي هذه المهزلة»، لكن: «كيف يُمكن الحدّ من الثكاليف؟»

كانت اللّيالي متشابهة وعديمة الطعم، يسودها الحزن، لكنّ الأيّام كانت سريعة أحياناً، مُستغرقة في القراءة. كنت أفكّر في «أنا ولوك» كحالة، الأمرُ الذي لم يحلّ دون تلك الأوقات الحرجة التي كان عليّ فيها أن أتوقّف على الرّصيف مع ذلك الشيء الذي يغمرني قرفاً وسُخطاً.

دخلتُ إلى مقهى، وضعتُ قطعة بعشرين فرنكاً في أسطوانة، ومنحتُ نفسي خمس دقائق من الشجن بفضل لحن «كان».

كرهها «ألان» أما أنا فقد حفظتُ كلّ نوتة فيها، تذكّرتُ رائحة الميموزا. لا أحبّ نفسي.

«لا بأس، يا رجل، قال «ألان» صبوراً، لا بأس!»

لا أحبذ كثيراً كلمة «يا رجل» هذه: لكن في هذه الحالة هي تواسيني.

- أنتَ لطيف، قلتُ لـــ«ألان».

- لا عليكِ، قال، أنجز رسالة الدكتوراه خاصّتي على الضبر. أنا مهتمّ.

لكن تلك الموسيقى أقنعتني، أقنعتني بأني في حاجة إلى لوك. أعرف جيداً أن هذه الحاجة مرتبطة ومعزولة في آن عن حُبّي.

ما زلتُ قادرة على فصل الإنسان، عن الشّريك، عن سبب شغفي: العذق. وكان هذا هو المأزق؛ ألّا يكون في وُسعي الاستهانة به؛ كما نقلّل عادة من شأن أناس يجبوننا بفتور. هناك أيضاً أوقات أقول فيها: «لوك المسكين، كم هو مُرهِقٌ أن أكون له، كم هذا مُمِلّ!». وحقدتُ على نفسي، كوني لم أحافظ على خفّتي، رغم أنّها هي التي كانت ستوثقه. لكنّي أعرف أنّ لوك لا يفهمُ ماذا يعني «رغمَ». لم يكن خصماً، إنّه لوك. لن أنجو.

ذات يوم وأنا أخرجُ من غرفتي لألتحق بالمحاضرات، قدّمت لي المالكة سمّاعة الهاتف. لم يخبرني قلبي وأنا أتناولها، فـ «لوك» أصبح بعيداً. تعزفتُ إلى الصّوت الخافت المتردّد لفرنسواز:

«دومينيك؟

- نعم، قلتُ.

كان كلّ شيء ساكناً في السّلّم.

«دومينيك، أردتُ أن أكلّمك قبل الآن. هل تأتين لزيارتي رغم كلّ شيء؟

- بالتّأكيد، قلتُ.

كنتُ أراقب صوتي إلى درجة أنّي تحدّثتُ بنبرة مؤدّبة.

«هذا المساء، السّادسة؟

- موافقة.

وقفلك الخط. كنت مضطربة ومسرورة بسماع صوتها. استحضرتُ عطلة نهاية الأسبوع، السيارة، الغداء في المطعم، الديكور.

الفصل السادس

لم أذهب إلى الجامعة، سرتُ على طول الطريق وأنا أتساءل ما الذي يمكنها أن تقوله لي.

حسب ردّة الفعل الكلاسيكية، بدا لي أني تعذّبت كثيراً كي أتلقى اللّوم من أيّ كان. عند السادسة كانت تُمطر قليلاً؛ كانت الطرقات مبتلّة ولامعة تحت الأضواء كظهر الفقمة. في مدخل الرّدهة لمحتُ نفسي في المرآة. ازداد جسمي نحافة، تمنيتُ لنفسي مرضاً خطيراً ولوك الذي يأتي ليبكي على حافّة فراش الموت خاصّتي. كان شعري مبللاً، وكنتُ مرتبكة؛ سأوقظ في فرنسواز طيبتها الأبديّة. لبثتُ كذلك لحظة. ربّما أفادني ذلك في «المناورة»، أن أجعل فرنسواز تتعلّق بي، أن أضاجع زوجها، أن أصير دنيئة. لكن ماذا؟ لِمَ قد يصير المرء دنيئاً فيما هناك هذا الشّعور المطلَق، الضّعيف، الكامل. كنتُ مذهولة، معجَبة بحبّي. نسيتُ تماماً أنّه لا يمثّل بالنّسبة إليّ سوى سبباً لأتعذّب.

فتحت لي فرنسواز خائفة بنصف ابتسامة. نزعتُ معطفي الواقي لدى دخولي.

- أنتِ بخير، سألتُ.

- جيد، قالت. اجلِسي. إيه... اجلِسوا (بتكلّف).

نسيتْ أنّ الكلفة بيننا مرفوعة. جلستُ. نظرتْ إليّ مندهشة من مظهري الفزري المثير للشّفقة. يثير ذلك إحساسي بالعطف على نفسي.

- تشربين شيئاً؟

- ممتلئة.

فوراً قدّمت لي ويسكي. كنتُ قد نسيتُ طعمه. كان هناك أيضاً هذا: غرفتي الحزينة، المطاعم الجامعيّة. نفعني المعطف الأحمر الذي أهدتني إيّاه. أحسستُ بأنّي متوتّرة ويائسة، تقريباً واثقة من نفسي لشدّة الغضب.

«هأنذا»، قلت.

رفعتُ عينيّ ورمقتُها. كانت جالسة في الكَنَبة المقابلة؛ هي. دون كلام، كانت تحدّق فِيّ. ما زال في مستطاعنا الحديث عن أمور أخرى، وأن أقول وأنا أغادرها: «أتمنى ألّا تكوني منزعجة منّي كثيراً». هذا حِكرٌ عليّ؛ يكفي أن أتكلّم بسرعة، قبل أن يتحوّل هذا الصّمت إلى اعتراف مضاعف. لكنّي صمتُّ. كنتُ أخيراً في لحظة، إنّي أعيش لحظة.

«وددتُ لو أنّي هاتفتك قبل الآن، قالت أخيراً؛ لأنّ لوك قال لي ذلك. ولأنّ مجرّد معرفة أنّك وحيدة في باريس. في النهاية...

- كان عليّ أيضاً أن أتصل بك، قلتُ.

- لماذا؟

كدتُ أقول: «لأعتذر»، لكنّ الكلمة بدت لي ضعيفة. قلتُ الحقيقة.

«لأنّي رغبتُ في ذلك، لأنّي حقّاً وحيدة. ثمّ لأنّه يؤلمني أن أفكّر بأنّك...».

بدرت منّي حركة مُبهمة.

- سحنتُكِ سيئة، قالت برفق.

- نعم، قلتُ بخنق. لو كان في وسعي لجئتك ولقدّمتِ لي شرائح اللّحم. سأكون مُمدّدة على سجّادك، وستواسينني. لسوء الحظّ، أنتِ الوحيدة التي تعرف كيف تفعلُ ذلك والوحيدة التي لا يُمكنها أن تفعل ذلك.

ارتجفت. ارتعش كأسي في يدي. أصبحت نظرات فرنسواز لا تُطاق.

«كان هذا... سيئاً»، قلت. كي أعتذر.

أخذت كأسي من يدي، وضعته على الطاولة، جلست من جديد.

«كنتُ غيورة، قالت بصوت منخفض، كنتُ جسدياً غيورة».

كنتُ أنظرُ إليها، توقّعتُ كلّ شيء ما عدا هذا.

«إنّه حمق، قالت، أعرفُ جيداً، أنتِ ولوك، لا يهمّ».

أمام تعبيري، سرعان ما ندّت عنها حركة بدت لي جديرة بالإعجاب.

«أخيراً، أردتُ القول إنّ الخيانة في العرف الجسدي ليست خطيرة في حدّ ذاتها؛ لكنّي كنتُ هكذا دائماً. وخصوصاً الآن... الآن حيثُ...».

بدا أنّها تتألّم. شعرتُ بالخوف ممّا تتأهّب لقوله.

- الآن وقد تقدّم بي العمر ولم أعد شابّة، خمّنت وصرتُ – وأشاحت برأسها – غير مرغوبة كذي قبل.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

- «لا». قلت.

احتججت. لم يخطر لي أنّ الحكاية يمكن أن يكون لها أبعادٌ أخرى، مجهولة من جانبي، حقيرة، ليست حتى حقيرة، عاديّة حزينة.

اعتقدتُ أنّ هذه الحكاية تخصني؛ لكنّي لا أعرف شيئاً عن حياتهما.

«لا، ليس هذا»، قلت ونهضت.

اقتربتُ منها وظللتُ واقفة. استدارت ناحيتي وابتسمت قليلاً.

«صغيرتي دومينيك، يا للخسارة!»

جلستُ بجانبها، أخذتُ رأسها بين يَدَيّ. سمعتُ طنيناً في أذني. أحسستُ بأنّي خاوية. تمنّيتُ لو أنّ البكاء أسعفني.

«أحبكِ، قالت، كثيراً. لا أريد أن أتخيّل بأنّكِ كنتِ تعيسة. عندما رأيتكِ للمرّة الأولى فكّرتُ أنّ في وسعنا أن نُبدّلَ مظهركِ المهزوم بمظهر سعيد. لم نُوفَّق.

- تعيسة، كنتُ كذلك حقّاً، قلت، لقد حذّرني لوك.

كم تمنّيتُ أن أرتمي في حضنها الكبير السخي، أن أبوح لها بأنّي رغبتُ بأن تكون هي أمّي، بأنّي حزينة، أن أبكي كطفل. لكنّي لا أجيد هذا الدّور.

«سيعود خلال عشرة أيّام»، قالت.

ما كانت هذه الهزّة في ذلك القلب المثابر؟ تستحقّ فرنسواز أن يعود إليها لوك ونصف سعادتها. كان عليّ أن أضحّي. جعلتني فكرتي الأخيرة أبتسم. كانت حيلتي الأخيرة كي أواريَ عدم أهمّيّتي. لا أملك شيئاً أضحّي به، لا أمل. كلّ ما عليّ فعلُه هو أن أضع حدّاً، أو أن أنتظر حتى يضع الزمن حدّاً لمرضي. هذا التخلّي القاسي يحمل في طيّاته نوعاً من التفاؤل.

«حين ينتهي الأمر بالنسبة إليّ، قلت، سأراكِ فرنسواز، ولوك أيضاً. الآن ليس أمامي سوى الانتظار».

عند الباب قبلتني برفق. قالت: «إلى لقاءٍ قريب».

لكن لمّا عدتُ إلى غرفتي، تهاويتُ على سريري. ماذا قلتُ لها، أيّ حمقاء باردة؟ سيعود لوك وسيأخذني بين ذراعيه ويُقبّلني. حتى لو لم يكن يحبّني فسيكون هنا، هو، لوك. وسينتهي هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكابوس.

بعد عشرة أيام، عاد لوك. علمت بذلك لأني مررت أمام بيته بالأوتوبيس ورأيت سيارته رابضة. عدت إلى الإقامة وانتظرت مكالمته. لم تأتِ المكالمة. لا في ذلك اليوم، ولا في اليوم الذي يليه، حيث تظاهرت بنزلة برد كي أنتظره.

كان هنا، ولم يكلمني. بعد شهر ونصف من الغياب، كان اليأس ذلك الارتجاف ونصف الضحك الداخلي والهوس بعدم الاكتراث. لم أتألم كما تألمت في تلك الفترة. قلت في نفسي إنه الحاجز الأخير، لكنه قاس جداً.

نهضت في اليوم الثالث. حضرت الدروس مشى بجانبي «ألان». استمعت إلى ما يقوله لي، بانتباه، كنت أضحك. ثقة جملة تسكنني لا أدري السبب في ذلك. «هناك شيء ما فاسد في مملكة الدانمارك». حملتها معي دائماً تحت شفتي.

في اليوم الخامس عشر، استيقظت على موسيقى في الساحة، يذيعها راديو سخي لأحد الجيران. كانت مقطوعة رائعة لموزارت، موضوعها الفجز كالعادة، الموت، ابتسامة ما. لبثت أسمعها طويلاً، في فراشي، بلا حركة. كنت سعيدة جداً.

Telegram:@mbooks90

دعتني المالكة إلى مكالمة. وضعت ثوب نوم ولم أكن متعجلة. نزلت. فكرت في أنه لوك، وأن هذا لا يعني الكثير. ثقة شيء ما انفصل عني.

«أنت بخير؟»

سمعت صوته. كان صوته. من أين جاءني هذا الهدوء، كأن شيئاً حياً، فهماً، ينبع مني. دعاني إلى احتساء كأس معه، في الغد. قلت: «نعم. نعم».

صعدت إلى غرفتي، منتبهة تماماً. كانت الموسيقى قد انتهت وتأسفت لأني لم أسمع نهايتها. تفاجأت بصورتي في المرآة وابتسمت. لم أقاوم رغبة في الابتسام، لا أستطيع. أعرف أني وحيدة من جديد. رغبت في أن أقول هذه الكلمة لنفسي. وحيدة. وحيدة. لكن ماذا في النهاية؟ كنت امرأة أحبت رجلاً. إنها حكاية بسيطة؛ ليس ثقة ما يبرز رسم تعبير على الوجه.

---

(1)- سبير Spire: فيلسوف وصحافي فرنسي.

(2)- يون Yonne: مقاطعة شمال فرنسا يشقها نهر اليون من جنوبها إلى شمالها ومنه استمدت اسمها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(3)- السربون La Sorbonne: جامعة فرنسية مرموقة تُدرس الأدب والفن والعلوم الإنسانية.

(4)- بريم Brême: مدينة شمال غرب ألمانيا.

(5)- أبيكورس Epicure: فيلسوف إغريقي من الأوائل الذي بنوا فلسفتهم على تكون العادة من ذرة لا ترى بالعين المجزدة.

(6)- السين La seine: نهر يشق العاصمة الفرنسية باريس.

(7)- أميرة كليف La princesse de Clèves: رواية لماري مادلين دي لافايات، وملخص الرواية هو أن فتاة تبلغ من العمر 16 سنة (الآنسة شارلوت) تدخل بلاط الملك هنري الثاني. يقع أمير كليف فوراً في حب الآنسة، لا تبادله الحب ويتزوجان لكنها بعد ذلك تحب دوق نيمور Nemours، لكن حبهما لن يتسم بالشرعية لأنها امرأة متزوجة، ولكي تتمكن من عدم رؤيته تغادر القصر.

(8)- ألان Alain: فيلسوف فرنسي اشتهر بكتابه مقالات حول السعادة.

(9)-بيلياس وميليزاند Pelléas et mélisande: أوبيرا غنائية من 5 فصول.

(10)- كان Cannes: مدينة ساحلية فرنسية يُقام فيها مهرجان كان العالمي للسينما.

(11)- هذا الوجود «البرقي» في المطر: استعارة مُشتقّة من كلمة (برقة)، تحيل إلى التفكير في برقة تحت المطر. والمقصود في النص الأصلي هو التعبير عن الحالة الرثّة وعن مقدار الزداءة التي تعيشها البطلة.